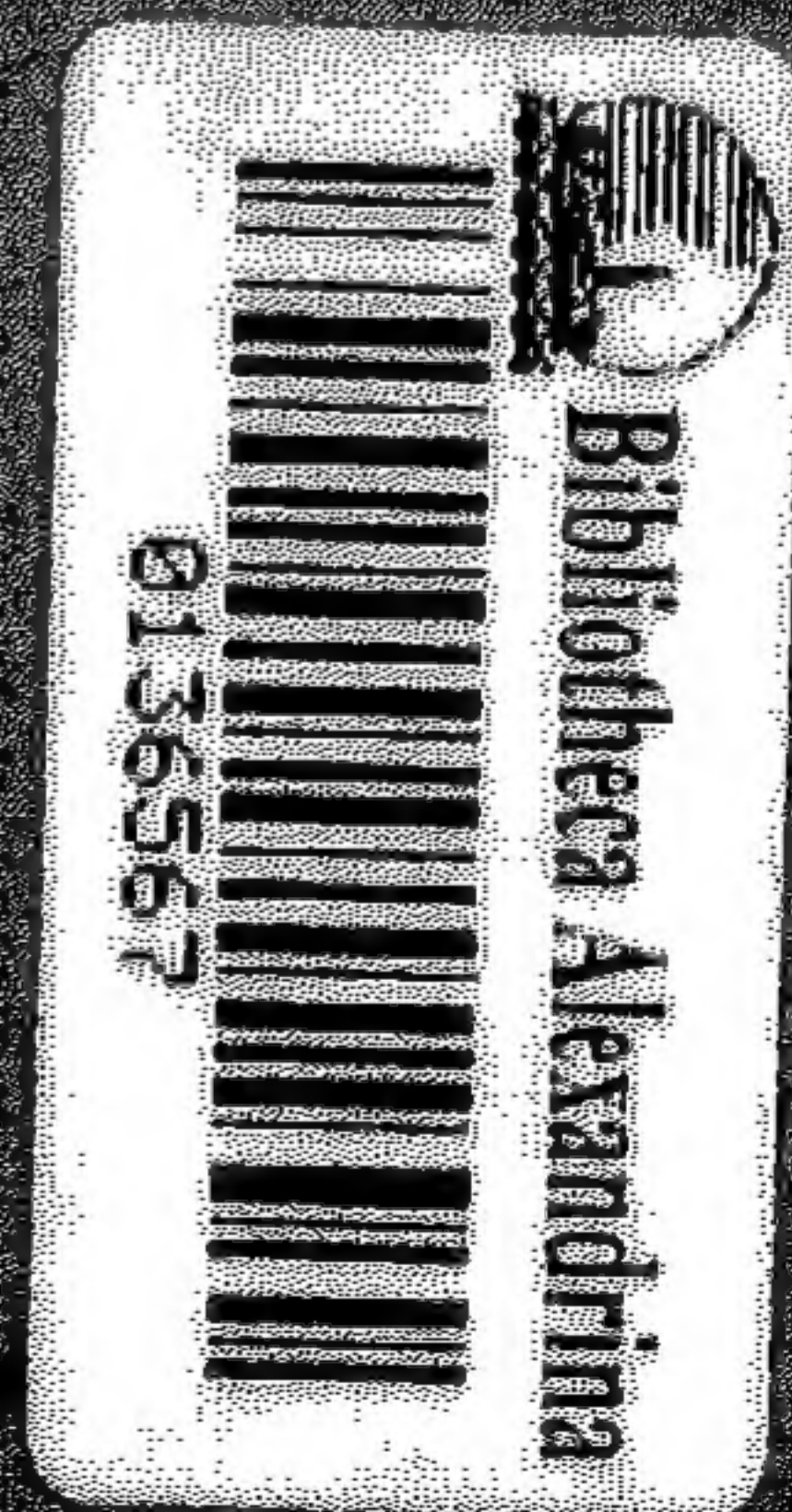


تاريخ الترجمة في مصر

في عهد الحملة الفرنسية

الدكتور
جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ الإسلامى

كتبة الثقافة الدينية



492

2

تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية

الدكتور
جمال الدين الشّيبان
أستاذ التاريخ الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس : ٥٩٢٢٢٢٧

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناسر

مكتبة الثقافة الدينية

المقدمة

١ - تزاوج الحضارات ؛ وسائل هذا التزاوج وخاصة الترجمة

الاتصال والتزاوج أساس التطور والرقى ، أمثلة ، طرائق
التعليم والتلقيح بين الحضارات بعضها والبعض الآخر ،
الترجمة : عند العرب في العصر العباسي ،
في أوروبا في العصور الوسطى
وعصر النهضة .

يقول علماء النبات إن النبات إذا طعم ولقح بنبات غيره أنتج
ثمراً أحلى من النباتين ؛ فالتفاح إذا طعم بالكثيرى جاء فاكهة جديدة
أحلى مذاقاً ، وأعطر شذى ، وكان بالتالى فى السوق أكثر طلباً وأعلى
ثمناً ، ففيه طعم الفاكهتين ورائحتهما .

ويقول علماء الوراثة والباحثون^(١) فى الذكاء إن الأسرة أو القبيلة
يتزوج أفرادها بعضهم البعض الآخر يكون مصير أجيالها الضعف
والغباء جيلاً بعد جيل ، وعلى العكس إذا دخل الأسرة دائماً دم جديد
من أسرة أو أسر جديدة جاء النسل أكثر قوة وأذكى عقلاً ، وبالتالى
أصلح للبقاء ، وأقوى على النضال فى الحياة .

ويقول علماء التاريخ والاجتماع والحضارة إن الشعب أو المجتمع

(١) انظر : Rex Knight, Intelligence and Intelligence Tests,

pp. 67—84. ، ومقالنا : «الذكاء والوراثة» فى مجلة العلوم ، السنة السادسة ،

العددان الخامس والسادس ، مايو ويونيو سنة ١٩٣٩ ، ص ٤١٦ — ٤٤٥ .

أو الدولة أو الحضارة التي تعيش وحدها ، وتنطوي على نفسها ، ولا يصيبها تطعيم أو تلقيح من حضارة غيرها يكون مصيرها الضعف والانحلال ، ولا نقول التوال ، فإنها تبقى موسمية في سجل التاريخ بأنها حضارة ضعيفة . وهكذا نجد أن الحضارات القديمة كانت دائماً على اتصال ، فإذا ضعفت الحضارة القديمة قامت الحضارة اللاحقة لها وفيها جماع ما في سابقتها من خير تتخذه كأساس لتبنى قوقه أبحاثا ، وكشوفات ، وعلوما ، وآدابا ، وفنونا جديدة هي كلها ثمرات لمجهود بشري جديد . ولهذا لا نجد الحضارة — من قديم — واقفاً على شعب واحد دون غيره ، بل هي كالوديعة يتناولها أيدي الشعب القوى فيزيد فيها وينميها ، حتى إذا اتايت عوامل الضعف والكلال أسلمها أمانة — أيضا — إلى الشعب الذي ولد جديدا وفيه عناصر القوة الجديدة ، وهكذا — والله — فلا عجب إذن أن نجد طالب الفلسفة الحديثة — مثلا — نفسه في حاجة لأن يدرس تاريخ الفلسفة والفلاسفة عند أمم الشرق القديم ، ثم عند اليونانيين ، ثم عند المسيحيين والمسلمين في العصور الوسطى ، إلى أن يصل إلى العصر الحديث ، لأنه يجد للفلسفة قصة طويلة واحدة . لا يمكن أن يقرأ فتحها الأخير ويفهمه ، إلا إذا بدأ بالفصل الأول . فاستوعبه ، ثم اتبعه الفصول الأخرى فتفهمها ، وهذا مثل بسيط ينطبق على كل علم أو فن أو أدب ، بل وعلى كل فرع من علم أو فن أو أدب . وطرائق التطعيم والتلقيح بين الحضارات بعضها والبعض الآخر . كثيرة مختلفة ، تختلف باختلاف العصور ، فمذ كان الاتصال والتأثير عن طريق الحروب أحيانا ، وعن طريق الهجرة والرحالة أحيانا أخرى . وقد كانت وساطته التجارة آنا ، والسفارة آنا آخر ، والزواج آنا

ثالثا . . . إلخ ؛ غير أن نقل العلوم من حضارة إلى حضارة ، وترجمتها من لغة إلى لغة كانت هى الوسيلة المشتركة دائما ، والناجحة أبدا .
فهؤلاء هم العرب ، كانت حضارتهم قبيل ظهور الإسلام — إذا استثنينا ما قام فى اليمن من حضارات قديمة — حضارة بدائية إذا قورنت بغيرها من الحضارات التى كانت تجاورها ، كالحضارة المصرية ، أو الحضارة الفارسية ؛ وانتشر الإسلام فى سرعة جاححة عجيبة شده لها العالم أجمع ، وورث فى سنوات قليلة أملاك الدولتين المجاورتين ، وأخذ الدين الجديد ينتشر بين الأهلىين ، وأصبحت له حكومات فى هذه البلاد الجديدة ، وتزاوج الشعب العربى مع هذه الشعوب جميعا جنسا ولغة وحضارة ، غير أن القرن الأول للدولة الإسلامية الجديدة انقضى والجهود تبذل لتوطيد الدعائم ، وتثبيت الأسس ، وبذلت جهود ضئيلة فى عهد بنى أمية للنقل عن علوم الروم والفرس ، ولم يبدأ العصر الذهبى للحضارة الإسلامية إلا فى عنفوان الدولة العباسية — فى عصرى الرشيد والمأمون — حيث أقبل العلماء — يدفعهم ويشجعهم هذان العاهلان العظيمان — على الترجمة عن اللغات الأجنبية^(١) فترجمت كتب كثيرة فى الطب والفلك والرياضة والفلسفة والجغرافية . . . إلخ ، ومنذ ذلك الحين تفتحت عقول المسلمين ، وأقبلوا يقرأون ويفهمون ، ثم أدبروا يفكرون ويبحثون ، فكان لهم بعد ذلك طب إسلامى ، ورياضة إسلامية وفلسفة إسلامية ، وجغرافية إسلامية . . . إلخ ؛ وكون هذا

(١) انظر : أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ١٩٥ — ١٩٦ ؛ وضحى الإسلام ج ١ ، ص ٢٦٣ — ٢٧٣ ؛ وانظر أيضا : تراث الإسلام فى مواضع كثيرة مختلفة ؛ وجورجى زيدان ، تاريخ تمدن الإسلام ، ج ٣ ، ص ١٤٧ — ١٦٢ .

كله حجارة جديدة وطابقاً جديداً في بناء الحضارة العلمية ، انبعث منه
وسط دياجير العصور الوسطى المظلمة أشعة قوية نفاذة ملأت بلدان
أوروبا وممالكها نوراً على نور ، وكانت مبعث النهضة الأوروبية
الحديثة وبعض مقوماتها ؛ وكان السلاح القوي لنقل هذه الحضارة
الإسلامية إلى أوروبا وقتذاك هو الترجمة أيضاً ، فقد ترجمت معظم
مؤلفات المسلمين في هذه العلوم إلى بعض لغات أوروبا وخاصة اللغة
اللاتينية — لغة العلم والتعليم في أوروبا في تلك العصور — وأصبحت
كتب العرب هي المراجع التي تدرس في جامعات أوروبا ، بل وكان العرب
هم الذين يدرسون في بعض تلك الجامعات ، وخاصة جامعات إيطاليا (١)

انتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوروبا عن طرق ثلاث :

- أ — اتصال الأوروبيين بالمسلمين في الأندلس ومملكة الصقليتين .
- ب — التجارة .

ج — الحروب الصليبية

وانقلاب الأوروبيون — بعد أن منوا بالفشل في الحروب الصليبية —
إلى عقر دارهم ، وقد بهرتهم أنوار الحضارة الإسلامية ، ومعهم
مفاتيح تلك الحضارة ، فتفرغوا لها يقتبسون معالمها ، وينقلون آثارها ،
ويدرسون توأليها ، وساعدتهم عوامل جغرافية وتاريخية أخرى على
أن يسيروا بالحضارة في دورها الجديد على طريقة جديدة تعتمد أكثر
ما تعتمد على التفكير الحر أولاً ، وعلى الملاحظة والتجربة ثانياً ، وقد
مهّد لهم هذا كله السبيل إلى كشوف علمية جديدة كانت هي الطلائع
المعهدة لظهور حضارة القرنين التاسع عشر والعشرين .

(١) انظر : Kantorowicz, Frederick II ، في أماكن كثيرة منه ،
وخاصة الفصول الخاصة بالجامعات الإيطالية .

ب — عرض عام لحالة مصر والشرق الأدنى.

قبيل الحملة الفرنسية

مصر تدفع عن الشرق خطر التتار ، تأخر الحالة العلمية في مصر ، ناحية واحدة
اهتم بها المصريون في تلك العصور وهي التأريخ لأنفسهم وللمصر ، جهود
التأليف الموسوعي في القرن التاسع الهجري (١٥ م) ، الركود
والخمود في العصر العثماني ، أسباب هذا الركود كما صوّرها
الأستاذ شفيق غربال بك ، وصف الرحالة الفرنسيين
لحالة مصر العلمية في القرن ١٨ ، وصف
الجيرقي لها ، انقطاع الصلات بين مصر ،
والغرب الدول الأوروبية تبدأ التفكير
في غزو الشرق وخاصة مصر .

كان الأوروبيون يفعلون هذا بينما كان الشرق قد اتخذ لنفسه ، او
اتخذ له القدر أسلوباً آخر من الحياة يختلف كل الاختلاف عن هذا
الأسلوب الذي اصطنعه أوروبا لنفسها أو اصطنعه القدر لها .

بذل الشرق — وكانت مصر حينذاك مركزه وضيعة الغنية
وحصنه القوى — جهوداً عنيفة لرد الصليبيين عن مصر ، ولم يكده
ينجح في مهمته حتى فاجأته غارات أشد قوة وتدميراً هي قوة التتار
يغيرون عليه في موجات متلاحقة متدافعة ، فصمد لها ، ودافعها حتى
دفعها ودفع شرها ، وكان لمصر وحكامها من سلاطين المماليك كذلك
الفضل كل الفضل في تدويع هذه الجموع الهمجية حتى أحست بالدوار
فولت وجهها ووجهة أخرى ترضاها . بعد أن قبست قبساً جديداً من

الإسلام هذبها وشذب من وحشيتها، فاستقرت في الهند، وكونت هناك دولة (١) مغولية جنسا، إسلامية ديناً. كان لها شأن عظيم في تاريخ تلك البلاد.

تلاشت هذه الموجات الصليبية والنثرية بعد أن بذلت مصر وبذل سلاطينها الجهد كل الجهد، والمال كل المال، في القضاء على هذين الخطرين، لهذا لا نعجب إذا لاحظنا — بالمقارنة — أن عصر المماليك الثاني — وخاصة في أواخره — يقل قوة وجاها عن عصر المماليك الأول.

ولا عجب أيضاً أن نجد الحركة العلمية في مصر تخمد وتضعف في هذه القرون. لم يظهر فيها مفكرون جدد، ولا مدارس تفكيرية جديدة، وانتهت العناية بالعلوم في الأزهر والمساجد والمدارس التي ينشئها سلاطين المماليك إلى دراسات دينية أو لغوية أو تاريخية، وانتهى جهد العلماء في مصر إلى نظم قصيدة لمده سلطان إذا انتصر، أو تأريخ حياته إذا مات، أو شرح، أو تفسير، أو تهमيش، أو تعليق، أو اختصار لأهيات الكتب القديمة في الفقه والحديث وغيرهما من العلوم الدينية واللغوية.

غير أن هناك شيئاً واحداً لم ينسه المصريون عصرهم من العصور، ذلك هو شعورهم بأنفسهم وببلادهم مصر، ذلك الشعور كان له أثره الخطير في تاريخ مصر العلمي، فقد دفع المصريين دائماً إلى تأريخ أنفسهم

1) Arnold (Th.), Preaching of Islam. pp. 218—252.

موملوكهم ، وقضائهم ، وعلماهم ، ومدنهم ، ومعابدهم ، وتيلهم ،
وأغنيادهم... إلخ... إلخ ، وكانت لنا من هذا الجهد المتصل سلسلة كتب
الخطوط وما يكملها من كتب التاريخ ، تبدأ بكتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم ،
وتنتهى بالخطط التوفيقية لعلى مبارك ، وتقويم النيل لأمين سامى ،
وتاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى .

ولم يكد القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) يوشك
على الانتهاء حتى كان الإعياء قد أخذ من مضر كل ماخذ ، ولهذا نراها
لا تستطيع أن تقف طويلا أمام قوى العثمانيين المتفوقة ، وينتهى بها
الامر إلى الخضوع والاستقرار حيناً .

وكأننا بالمضريين وقد أحسوا الخطر الداهم فى ذلك الحين ،
فتدافعوا فى منافسة عجيبة — طوال القرن التاسع الهجرى — يسعون
لجمع ما وصل إليهم من علم ، وما كان بين أيديهم من كتب فى موسوعات
كبيرة (١) ، فتظهر فى هذا القرن أسماء لامعة ، ونرى المقرئى يكتب
الخطط والسلوك وعشرات غيرها من الكتب ، والقلاشندى يكتب
صبح الأعشى ، وابن خلدون يضع تاريخه فى مصر ، والسيوطى يجمع
بمئات الكتب ، ثم نجد السخاوى أخيراً يؤرخ لهؤلاء جميعاً ، ولغيرهم
من عاشوا فى هذا القرن فى كتابه : « الضوء اللامع فى أعيان القرن
التاسع » ، مترسماً خطى أستاذه ابن حجر فى كتابه : « الدرر الكامنة
فى أعيان المائة الثامنة » .

فقدت مصر استقلالها بعد الفتح العثمانى ، وظلت القوى الثلاث

(١) أنظر الكتاب القيم الذى ظهر أخيراً للدكتور محمد مصطفى زيادة .
وعنوانه : « المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى » . القاهرة . ١٩٤٩ .

الحاكمة (الباشا والديوان والماليك) وهى قوام النظام الذى وضعه
سليم الأول لحكم مصر؛ وللاحتفاظ بها ولاية عثمانية أطول مدة ممكنة .
ظلت هذه القوى تتناحر وتتنازع، وكل واحدة تبذل جهدها لتحقيق
غرضين اثنين :

- (١) أن تقوى هى وتضعف القوتين الآخرين .
(ب) وأن تبتز من الشعب ما تستطيع ابتزازه من مال لتغنى .
وأما الشعب ، وأما البلد ، وأما نواحي الإصلاح للرقى بالشعب .
وبالبلد ، فقد أهملت جميعا ، حتى سطر التاريخ لهذا العهد صفحة سوداء ،
وغدت مصر توصف — فى هذا العهد العثمانى — بالضعف فى كل شىء :
بالضعف فى النواحي الحربية والاقتصادية ، وبالضعف فى النواحي
الصحية والعلمية ؛ وخيم على البلاد نوع من الخمود والركود ظل ثلاثة قرون .
بحث الأستاذ شفيق غربال بك أسباب هذا الركود بحثا موفقا فى :
المقدمة التى قدم بها كتاب : « الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » ،
لصديقنا الدكتور حسين مؤنس ، فبنى قول القائلين بأن هذا الركود
يرجع إلى كون « الحكام العثمانيين من شعب يميل إلى المحافظة بسليقته » ،
قالعثانيون لم يكونوا من شعب واحد ، ولم تكن العثمانية إلا دلالة
على الانتماء لطائفة الحاكمين ، هذا إلى أن نظم العثمانيين الأولى ، وما اختطه
سلاطينهم الأول لشئون الحرب والسياسة كان على جانب عظيم من
المرونة والمقدرة ... (١) »

ثم وضع الأستاذ بعد ذلك أصبعه على موطن الداء ، وسبب هذا

(١) ص « ه » من المقدمة .

الركود ، فقال : « قد يرجع الركود إلى أن القوة العثمانية حالت بلا شك ،
دون اتصال أمم الدولة بالحضارات الأجنبية عموماً . وبالحضارة
الأوروبية خصوصاً . »

ولكنه شأن الباحث المنصف المدقق يعود فيلتمس للعثمانيين العذر
في النقطتين التاليتين فيقول :

١ — « ولكن الباحث المنصف لا يستطيع أن يسلم بأن الأوروبيين
في القرن السادس عشر وما تلاه من الأزمنة ، كانوا على استعداد لأن
يقدموا للبشرقيين المسيحيين والمسلمين من رعايا السلطان ثمرات نهوضهم
العلمي هدية خالصة . كما أن الباحث لا يستطيع أن يحمل أن تقدم
الحضارة الأوروبية كان في أغلب الأحيان اسماً مرادفاً لما كانت تقوم
به الأسرات المالكة في أوروبا من الحروب في سبيل المجد ، ويشد أزر
الملوك — ولكن في سبيل المجد الأعلى — رجال الدين ، وفي سبيل
الاستقلال — رجال المال . أما والأمر كذلك ؛ فلا سبيل إلى القول
بأن الشرق العثماني كان يستطيع الاستفادة من النهضة الأوروبية دون أن
ينزل عن رجولته وحرية . »

٢ — « والصحيح في مسألة الركود هو أن الدولة العثمانية تولت
أمر أمم كانت على نوع من الأعياء ، لم يكن الحكم العثماني قادراً على
أن يزيله عنها ؛ فالعثمانيون كانوا قوماً يأخذون ولا يعطون ؛ تشهد بذلك
خططهم وفنهم وآدابهم ؛ فلم يكن منهم إلا أن نظموا ما وقع تحت
سلطانهم في ملك عريض وعملوا على ألا يتطرق إليه تغيير أو تعديل ؛
شأنهم في هذا شأن الدول الكبرى المتعددة الأجناس والأديان تهدهدها . »

دون أخرى معادية» (١).

ومهما تكن الأسباب فإننا لا نستطيع أن ننسى أن هذا الركود الطويل دفع مصر وسكانها إلى الانكماش داخل بلادهم كما تنكش القوقعة داخل صدفتها، وطال انكماش مصر وسكانها فأصبحت وأصيروا بالضعف، شأن المريض يطول به الرقاد وتطول به الوحدة؛ ولهذا لا تعجب إذا قرأنا وصف الرحالة الأوروبيين الذين وفدوا على مصر والشام وسائر بلدان الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر، أمثال ساقارى وثونى، وغيرهما. قال ثونى يصف الحالة الصناعية والعلمية في مصر وقتذاك: «الجهل عام في هذه البلاد مثل سائر تركيا، وهو يتناول كل الطبقات، ويتجلى في كل العوامل الأدبية والطبيعية، وفي الفنون الجميلة، حتى الصناعات اليدوية، فإنها في أبسط أحوالها، ويندر أن تجد في القاهرة من يصلح الساعة، وإذا وجد فهو أفرنجى، أما الصياغة فأصحابها فيها أكثر مما في أزمير وحلب، لكنهم جهلاء، وإنما يتقنون المنسوجات الحريية، وإن كانت أقل إتقاناً وأعلى ثمناً من صنع أوروبا، أما العلم فوجود الأزهر فيها جعلها مرجع الطلاب في الشرق الإسلامى».

وحتى هذا العلم، وحتى هذا الأزهر لم يكونا في القرن الثانى عشر الهجرى (القرن الثامن عشر الميلادى) فى حالة طيبة مبشرة، بل شملتهما موجة من الركود والجمود؛ وقد وصف مؤرخ مصرى معاصر — هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتى — مدى ما وصلت إليه الحالة العلمية فى مصر من تأخر وجمود فى ذلك القرن، فذكر أن أحمد باشا الوالى التركى على

(١) س د و ف من المقدمة.

مختصر (١١٠٦٢ - ١١٦٣ هـ = ١٧٤٩ - ١٧٥٠ م) كان : د. من أرباب
القضاة ؛ وله رغبة في العلوم الرياضية ؛ ولما وصل إلى مصر ، واستقر
بالقعة ؛ وقابله صدور العلماء في ذلك الوقت ؛ وهم : الشيخ عبد الله
الشبراوي — شيخ الجامع الأزهر — والشيخ سالم النفراوي ، والشيخ
سليمان المنصوري ؛ فتكلم معهم ، وناقشهم ، وباحثهم ، ثم تكلم معهم
في الرياضيات فأحجموا ، وقالوا : لا نعرف هذه العلوم ، فتعجب
وسكت .

ثم ذكر مؤرخنا أن الشيخ الشبراوي طلع على عافته إلى القعة
في يوم جمعة ، واستأذن ، ودخل عند الباشا يحادثه ، فقال له الباشا :
« المسموع عندنا بالديار الرومية أن مضر منبع القضاة والعلوم ،
وكنيت في غاية الشوق إلى المجيء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل :
« لا تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » ، فقال له الشيخ : « هي يا مولانا
— كما سمعتم — معدن العلوم والمعارف » ، فقال : « وأين هي ؟ وأنتم
أعظم علمائها ، وقد سألتكم عن مطلوب من العلوم فلم أجده عندكم منها
شيئا ، وغاية تحصيلكم الققه والمعقول والوسائل ، وتبذتم المقاصد » .
فقال له : « نحن لسنا أعظم علمائها ، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم
وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام ، وغالب أهل الأزهر
لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم
الفرائض والمواريث ، كعلم الحساب والغبار (١) » ، فقال له : « وعلم
الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل هو من شروط صحة العبادة .
كالعلم بدخول الوقت ، واستقبال القبلة ، وأوقات الصوم والأهلة ،

وغير ذلك ، ، فقال : « نعم ، معرفة ذلك من فروض الكفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقيين ، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرفة الطبيعة ، وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل ، والأمور العطاردية ؛ وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء وأخلاق مجتمعة من القرى والآفاق ، فيندر فيهم القابلية لذلك ، ، فقال : « وأين البعض ؟ » ، فقال : « موجودون في بيوتهم يسعى إليهم » ، ثم أخبره عن الشيخ الوالد (يقصد والده الشيخ حسن الجبرتي العالم الرياضي الفلكي الكبير في ذلك الحين) . وعرفه عنه ، وأطنب في ذكره ... » .

ثم ذكر الجبرتي بعد ذلك أن الباشا أرسل إلى الشيخ حسن الجبرتي فاستدعاه لمقابلته ، وأنه « سر برؤياه واغبط به كثيراً ، وكان يتردد إليه يومين في الجمعة ... وأدرك منه مأموله ... ولازم المطالعة عليه مدة ولايته ، وكان يقول : « لو لم أغتم من مصر إلا اجتماعي بهذا الأستاذ لكفاني . . . » .

وأخيراً يختم الجبرتي قصة والده وعلماء مصر مع الباشا بجملة لطيفة فيها نقد ساخر لاذع ، فيقول : « وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوي كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول له : « سترك الله كما سترتنا عنده هذا الباشا فانه لولا وجودك كنا جميعاً عنده حميراً ... » (١)

لم تنقطع الصلات بين الشرق والغرب — حرباً وسلباً — منذ ظهر الاسلام . وكانت الحروب الصليبية أبرز صور هذه الصلات ،

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ١٩٣ — ١٩٤ .

الفصل الأول

اتصال العلماء المصريين بعلماء الحملة الفرنسية

وأثر هذا الاتصال

التقابل بين جيش المماليك والفرنسيين ، أعداء الفرنسيين في مصر ، فشل الحملة
حربيا ، جهود علماء الحملة ، موقف الشعب منهم ، موقف علماء مصر منهم ،
الشيخ عبدالرحمن الجبرتي يضيف الجميع العلمى ، اختياره عضوا في ديوان
« مينو » ، الشيخ إسماعيل الجشاب . علاقته ببعض مستشرقى
الحملة ، اختياره كاتباً « لسلسلة التاريخ » في ديوان
« مينو » ، أسطورة إصدار صحيفة عربية في عهد الحملة
ودحضها ، الشيخ نحسن المطار ، عنايته بعلوم غير
تلك التى كانت تدرس فى الأزهر ، اتصاله ببعض
الفرنسيين ، إفادته منهم ولهم ، أثر هذا
الاتصال فى المشايخ الثلاثة ،
مطبعة الحملة .

كان الأمر فى مصر قد انتهى بموتين من ثلاث — وهما قوة الباشا
وقوة الديوان — إلى الضعف العام ، والانحلال الشامل ، كما انتهى بالقوة
الثالثة — وهى قوة المماليك — إلى نوع من الانتعاش والصحو ،
لهذا نجد أن هذه القوة هى التى تتولى أمر الدفاع عن مصر أمام خطر

هذا الغزو الجديد . ، ولكن الممالك اضطدموا هذه المرة بغرب غير ذلك التي عرفوه في الحروب الصليبية ، وسرعان ما رأوا أن لأساس لما زعموا « من أنه إذا جاءت جميع الأهرج لا يقفون في مقابلتهم ، وأنهم يدورسونهم بخيولهم - (١) ، فكان هذا الجيش الجديد الآتي من الغرب الجديد يدينح نظاما جديدة ، ويستعمل أسلحة جديدة ، ويقوده شباب يتلى شجاعة وإقداما وأملا فلم يكن من الممكن ، أو من المحتمل ، أن تقف أمامه قلوب الممالك — رغم شجاعتهم الشخصية — بنظامهم الفروسى القديم ، وخططهم العتيقة — بخطط الكز والفز — وسلاحهم البالى من سيوف ورمياح ونبال . . . إلخ .

هزمت جيوش الممالك ، وتفرقت جنوبهم شتعا تلوذ بأذيال الفرار شرقا نحو الشام وجنوبا نحو أقاليم الضغيت وبلاد النوبة والسودان ، ولهذا نستطيع أن نقرر أن الحملة نجحت من الناحية الحربية ، ولكنه كان نجاحا وقتيلا لم يلبث أن انكشف عن صعوبات جديدة ، يقوم بها عصبية من الإغداء : إذ لم يكن من اليسير أن تتنازل قلوب الممالك عن غنيمتهم بهذه السرعة ، ولم يكن من السهل أن يترك السلطان مصر في درة تاجه — للفرنسيين دون أن يناضل في سبيلها — ولو بجهد المقل — ، ولم يكن من الجائز عقلا في شريعة إنجلترا أن تلقى فرنسا الجبل على الغارب تستولى على هذا الشريان الذى يصل بين قلبها وبين أطراف الامبراطورية في الشرق ، ولم يكن من المقبول أخيرا لدى

(١) : الجبرتى ؟ نج ٣ ٦ من ٢ ؟ وانظر أيضا : شفيق غربال بك ، الجتزال يعقوب والفارنى لاسكارين ، ص ٥ .

سكان مصر ان يضع هؤلاء الفرنج أيديهم على بلادهم ، وهم هؤلاء الكفرة الذين يشربون الخمر ، ويراقصون النساء ، ويرتكبون المنكر عيانا ، وهم الذين يقيدون من حرياتهم يوما بعد يوم فيمنعونهم الدفن في منازلهم ، ويأمرونهم بكس الشوارع ورشها وإنارتها ليلا ، ويهدمون أبواب حاراتهم ، وينزلون أسقف أسواقهم ، ويسجلون مواليدهم وموتاهم ، ويفرضون عليهم الضرائب .. إلخ (١) .

وثارت هذه القوى جميعا ضد الفرنسيين ، ولكل بغيتها وأمنيتها ، وظلت الحملة الفرنسية سنوات ثلاث تناضل نضالا عنيفا حتى عجزت تخضعت ثم خرجت .

غير أن فريقا آخر من رجال الحملة نجح نجاحا مشكورا في مهمته التي ألقيت على عاتقه ، ذلك هو فريق العلماء المرافقين للحملة ، فقد كان الجنود يحاربون ويناضلون في الصحراء ، وفي المدن ، وفي القرى ، وهؤلاء العلماء عاكفون على أبحاثهم وآلاتهم وكتبهم ، يدرسون تربة مصر ، ونباتاتها ، وحيوانها ، وطيرها ، ونبيلها ، ومعادنها ، وطرقها وأسواقها ، وصناعاتها ومجتمعاتها ، وآثارها إلخ .. ، ثم يسجلون في دفاترهم نتائج أبحاثهم هذه كلها ، لتكون الرصيد المختزن للؤلؤ العظيم الذي يضعونه عن مصر بعد خروج الحملة ، وهو كتاب وصف مصر

“Description de l’Egypte”

وكان الناس في مصر يشاهدون هؤلاء الفرنسيين يتنقلون في القرى

(١) أنظر الجبرتي ، ج ٣ ، ص ٨١ — ٨٢ ، ١٧٠ — ١٧١ ؛ وغريال

المرجع السابق ، ص ١٠ — ١٢ .

والمدين يقلبون أنظارهم في كل شيء ويخضعون. كلما يرون ويشاهدون،
لبحثهم وآلاتهم، ويسألون ويقيّدون، فلقت أنظارهم هذا الفضول،
ولكنهم لم يلبثوا أن انصرفوا عن هؤلاء الفضوليين وجذبتهم شئون
حياتهم الخاصة.

هذا كان موقف عامة مصر من علماء الحملة، أما موقف علماء مصر
فكان مغايرا لهذا، فقد اتصلت الأسباب بينهم وبين رجال الحملة بعد أن
هدأت المعارك الأولى، وأسفرت عن فرار المماليك الذين كانوا سوط
عذاب مشهرا على المصريين منذ أمد طويل، فهم من جانبهم رأوا أن
حماتهم قد تخلوا عنهم، وفروا هاربين، ونايليون من جانبه كان يرى
كما قال في مذكراته أنه لكي يسوس هؤلاء الناس — أي المصريين —
لا بد من وسطاء يسعون بيننا وبينهم، وكان لا بد أن نقيم عليهم رؤساء
ولا أن أموا رؤساءهم بأنفسهم، وقد فضلت العلماء، وفقهاء الشريعة
لأنهم — أولا — كانوا كذلك — أي رؤساء بطبيعتهم — وثانيا —
لأنهم كانوا مفسري القرآن، ومعروف أن أكبر العقبات تنشأ عن
أفكار دينية، وثالثا، لأن للعلماء خلقا لنا، ولأنهم — دون نزاع —
أكثر أهل البلاد فضيلة، لا يعرفون كيف يركبون حصانا، ولا قبل
لهم بأي عمل حربي، وقد أقدت منهم كثيرا، واتخذت منهم سيلا
للتفاهم مع الشعب، وألقت منهم الديوان، (١)

وتكون الديوان من أظهر مشايخ المصريين يرأسهم الشيخ عبد الله

(١) Napoléon, Campagnes d' Egypte, t. II, pp. 151 sq.

والبرجة من ألباظ مؤنس، المرجع السابق ص ٩٩ — ١٠٠؛ أنظر أيضا :
Correspondances de Napoléon, t. XXX, pp. 83 — 84.

الشرقاوى ، وكان للديوان شأنه الخاص — من الناحية السياسية — فى حكم مصر تحت نفوذ الفرنسيين .

وكون علماء الحملة مجتمعهم ، وأقاموا عددهم وآلاتهم ، وأعدوا مكتبتهم ، وتوفروا على أبحاثهم ، وجذب هذا كله بعض المستنيرين من علماء مصر ، كمؤرخ مصر وقتذاك الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، بل إنهم كانوا إذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك ، وإظهار السرور بمجيئهم إليهم ، وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية ، أو معرفة ، أو تطلعا للنظر فى المعارف بذلوا له مودتهم ، ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد ، والأقاليم والحيوانات ، والطيور والنباتات ، وتواريخ القدماء ، ونير الأمم ، وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ، ومعجزاتهم ، وحوادث أهمهم بما يحير الأفكار ، (١) .

وطاف الجبرتى بحجرات المجمع وأروقته ، ووقف عند كل مشهد جديد ، ولدى كل كتاب طريف مشدوها مفتوح الفم من الدهشة والعجب ، ولم يسعه وهو المؤرخ الثقة ، إلا أن يثبت وصف ما رأى فى تاريخه معلنا دهشته وإعجابه وعجزه — وهو كبير من علماء مصر وقتذاك — عن فهم هذه الآلات والعدد ، فهو قد نشأ بالآزهر وتلقى فيه العلم . والتمط الذى كان يتبعه طلاب العلم فى مصر وقتذاك ساذج بسيط وإن كان متعبا فى نفس الوقت . فالطالب يجلس فى المسجد . أو

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

في داره . وينحني على كتاب مخطوط كلها أراد أن يقرأ . فاذا دخل الجبرتي بعد ذلك مكتبة المعهد . وشاهد نظام المطالعة الجديد الدقيق أعجب به ووصفه بقوله : وفيه جملة كبيرة من كتبهم . وعليها خزان ومباشرون يحفظونها . ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة . فيراجعون فيها موادهم . فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة . فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن فيصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسأفلهم من العساكر ، (١)

ثم طاف الجبرتي بالقسم الخاص بغلواء الفلك من الجمع ، وشاهد ما فيه من آلات عجيبة وصفها بقوله : وعند موت الفلكي وتلامذته في مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغربية المتقنة الصنعة . وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب ، الغالية الثمن ، المصنوعة من الصفر الملموه ، وهي تركيب براريم مصنوعة بحكمة ، كل آلة منها عدة قطع تركيب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة بحيث إذا ركبت حارت آلة كبيرة ، فأخذت قدرا من الفراغ ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئي ، وإذا انحل تركيبها وضعت في ظرف صغير ، وكذلك نظارات للنظر في السكواكب وأرصادها ، ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها ، واتصالاتها ومناظراتها ، وأنواع . الساعات التي تسير بموائى الدقائق الغربية الشكل الغالية الثمن ، .. (٢) .

(١) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

وترك هذا القسم إلى قسم التصوير فشاهد هناك المصورين يصورون الأشخاص والأشياء جميعا ، ووصفه بقوله : « وأفردوا لجماعة منهم بيت ابراهيم كتخدا السنارى ، وهم المصورون لكل شيء ، ومنهم « أريجو ، المصور ، وهو يصور صور الآدميين تصويرا يظن من يراه أنه بارز في الفراغ بجسم يكاد ينطق . حتى إنه صور صورة المشايخ . كل واحد على حدة في دائرة ، وكذلك غيرهم من الأعيان . وعلقوا ذلك في بعض مجالس صارى عسكر . وآخر في مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ؛ وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسماؤها . » (١) .

ثم عرج بعد ذلك على قسم الكيمياء والطب فوصفه بقوله :
« وسكن الحكيم «رويا» بيت ذى الفقار كتخدا .. ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه في ناحية . وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان ، واستخراج الأملاح . وقدورا عظيمة وبرامات ، وجعل له مكانان أسفل وأعلى ، وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة ، وبها كذلك عدة من الأطباء والجراحين وأفردوا مكانا في بيت حسن كاشف جر كس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى . وبنوا فيه تنانير مهندمة . وآلات تقاطير عجيبة الوضع ، وآلات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه . وخلاصات المفردات . وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات . واستخراج المياه الجللاء والحلالة . وحول المكان الداخل قوارير وأوان من

(١) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

الزجاج البلورى المختلف الاشكال والهيئات على الرفوف والسدلات .
وبداخلها أنواع المستخرجات .

وقد أجريت أمام الجبرقى فى هذا القسم بعض التجارب السكيميايية
البسيطة التى يقوم بإجرائها تلميذ المدارس الثانوية عندنا اليوم ولكنها
أدهشت عالمنا الكبير وحيرت فكره . فإنه يقدم لهذه التجارب قبل
وصفها بقوله : « ومن أغرب ما رأيته فى هذا المكان . . . » ثم يصف
ما رأى فيما يلى : « أخذ بعض المتقيدين زجاجة من الزجاجات الموضوعة
فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئاً فى كأس ، ثم صب عليها
شيئاً من زجاجة أخرى ، فعلا الماء ان . وصعد منهما دخان ملون
حتى انقطع وجف ما فى الكأس ، وصار حجراً أصفر ، فقلبه على
البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ، ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه
أخرى فحمد حجراً أزرق ، وبأخرى فحمد حجراً أحمر ياقوتياً ، وأخذ
مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعته على السندال ، وضربه
بالمطرقة بلطف ، فخرج له صوت هائل كصوت القرا بانه انزعجنا منه ،
ففضحكوا منا ، وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة
القيم ، فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح
الداخل بالرصاص ، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها ، وأنزلهما
فى الماء ، وأصعدهما بحركة أنحبس بها الهواء فى أحدهما ، وأتى آخر
بفتيلة مشتعلة ، وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الآخر الشعلة
إليها فى الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل
أيضاً ، وغير ذلك أمور كثيرة ، وبراهين حكمية تتولد من اجتماع

العناصر وملاقاة الطيائع ؛ ومثل الفلسفة المستديرة التي يدبرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كشيء ويظهر له صوت وطقطقة ، وإذا أمسك علاقتها بشخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها ؛ ولمس آخذ الزجاجة الدائرة ؛ أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتجج بدنه وارتعد جسمه ؛ وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة ، ومن لمس هذا اللامس ، أو شيئا من ثيابه ، أو شيئا متصلا به حصل له ذلك ، ولو كانوا ألفا أو أكثر . . . (١) .

وقد تعمدت أن أنقل هذه النصوص الطويلة عن وصف الجبرتي لأقسام المجمع لا بين الفارق العظيم الذي كان يفصل حينذاك بين عقلية الغرب وعلوم الغرب — يمثلها علماء الحملة — ، وبين عقلية مصر والعلوم في مصر — يمثلها كبير من علمائها — ويبرز هذا الفارق أعراف الجبرتي في تعليقه على هذا الوصف كله ؛ فإنه يقول : « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ؛ ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا » . . .

وبمضى الوقت قويت الصلة بين الجبرتي ورجال الحملة الفرنسية في مصر ؛ وكان الديوان قد عطل إبان المفاوضات بين الفرنسيين والأتراك لعقد معاهدة العريش ؛ فقد كان الفرنسيون معتزمين الرحيل إذا نفذت المعاهدة ؛ ولكن المعاهدة نقضت ؛ ومع هذا ظل الديوان معطلا ، ولم يفكر كبير في إعادته ، فلما قتل وانتقلت القيادة إلى دمينو ، أعاد الديوان في صورة غير صورته أيام نابليون ؛ وليس فيه

كما يقول الجبرتي : « خصوصي وعمومي . . . بل هو ديوان واحد ، (١) . وكونه من « تسعة أنفاز متعممين لا غير ؛ وليس فيهم قبطنى ؛ ولا وجاقلى ؛ ولا شامى . . . » (٢) . واختير مؤرخنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتي عضواً فى هذا الديوان وأشار إلى نفسه عند ذكر أسماء الأعضاء بقوله : « وكاتبه » (٣) بعد ذكر اسم الشيخ الصاوى مما جعل البعض ينسكح اختياره عضواً فى الديوان ؛ ويظن أنه يقصد بلفظ « كاتبه » كاتب الشيخ الصاوى ؛ غير أنه مما يؤيد اختياره عضواً فى الديوان أن جريدة « الكوريه دليجيت Courier de l'Egypte » التى كانت تصدر فى مصر وقت وجود الحملة بها نشرت فى العدد ٩١ الصادر فى ٥ افريل من السنة التاسعة (ديسمبر سنة ١٨٠٠) رسالة ودية أرسلها أعضاء الديوان وقتذاك إلى نابليون القنصل الأول فى فرنسا ؛ وفى أسفل الرسالة توقيعات أعضاء الديوان جميعاً ومن بينها توقيع الجبرتي (٣) (انظر أيضاً الشكل رقم ١ بالصفحة المقابلة)

ولم يكن الجبرتي العالم المصرى الوحيد الذى اتصل بالفرنسيين وأعجب بعلمهم ، بل اتصل بهم أيضاً شاعر مصر وقتذاك السيد إسماعيل الخشاب ؛ فالجبرتي يروى له شعراً قاله فى رجلين منهم ، أحدهما اسمه :

(١) و (٢) . المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٤٥ ، وأنظر أيضاً : الرافعى . تاريخ الحركة القومية ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ؛ وقد ذكر الجبرتي ، ج ٣ ص ١٦٠ أن الفرنسيين عندما علموا بوصول الانجليز والأتراك سنة ١٨٠١ اعتقلوا خمسة من أعضاء الديوان فى القلعة « وأمروا الأربعة الباقين من أعضاء الديوان وهم البكرى والأمير والسرمى ، وكاتبه ، أن يكون نظرم على البلد . . . الخ » .

(٣) أنظر الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، ج ١ ، ص ٤٥٦ — ٤٥٧ .

(شكل ١)

Le dyouân était composé cette année des neuf membres suivants :	Le cheykh Mohammed el-Mohidy
Le seyd Khalyt el-Bekry السيد خليل البكري ,	الشيخ محمد الهدي ,
ou descendants de Mahomet ,	Le seyd A'ly el-Rachydy السيد علي الرشيد ,
Le cheykh A'bd-allah el-Cher-qadouy الشيخ عبد الله الشرقاوي ,	A'bd er-Rahman el-Gabarty عبد الرحمن الجبرتي ,
Le cheykh Soleyman el-Fayouny الشيخ سليمان الفيومي ,	Le cheykh Moustafä 'el-Säouy الشيخ مصطفى الصاوي ,
Le cheykh Mohammed el-Emyr الشيخ محمد الامير .	Le cheykh Mousa el-Sersy الشيخ موسى النرسى .

في سنة ١٢١٥ (١٨٠٠) وفي عهد الجنرال مينو قام م . لويير M. Le Pér المهندس وأخذ أعضاء الجمع باصلاح مقياس النيل بالروضة ، وقد أرسل الديوان بهذه المناسبة خطابين إلى «مينو» و«لويير» لشكرهما على العناية بالمقياس ، وقد أثبتت صور الخطابين في كتاب «وصف مصر» ج ١٥ ص ١٤٠ وما بعدها ، ونص في هامش هذه الصفحة على أسماء أعضاء الديوان في تلك السنة ومن بينهم عبد الرحمن الجبرتي وهذه صورة للهامش المذكور .

« ريج » (١) ؛ والثاني واحد من رؤساء كتابهم من العارفين ببعض العلوم العربية ؛ يقول الجبرتي : « ولما وردت الفرنسية لمصر اتفق أن علق (أى الخشاب) شابا من رؤساء كتابهم ؛ كان جميل الصورة لطيف الطبع عالما ببعض العلوم العربية ؛ مائلا إلى اكتساب النكات الأدبية ؛ فصيح اللسان بالعربي ؛ يحفظ كثيرا من الشعر فلهلك المجانسة مال كل منهما للآخر ، ووقع بينهما توادد وتضاف حتى كان لا يقدر أحدهما على مفارقة الآخر ، فكان — الخشاب — تارة يذهب لداره وتارة يزوره هو . . . » (٢)

كان أبو الخشاب نجارا ، ثم احترف تجارة الأخشاب ، غير أن ابنه لم يشأ أن يمتن مهنة أبيه ؛ وتشقف بثقافة العصر الدينية اللغوية ؛ وتلقى العلم على مشايخ العصر ؛ واتصل منهم بالشيخ العروسي شيخ الجامع الأزهر (١١٩٣ — ١٢٠٨ = ١٧٧٩ — ١٧٩٣) وبالعلامة السيد محمد المرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس ؛ وبالشيخ محمد الأمير (٣) مفتي المالكية . . . إلخ . . . إلخ ؛ ثم أقبل على قراءة الكتب الأدبية ، وكتب الصرف والتاريخ ؛ « وأولع بذلك . . . حتى صار نادرة عصره في المحاضرات والمحاورات ؛ واستحضر

(١) لعله الملامة « ريج Raige » أحد أعضاء لجنة الترجمة بالمجمع الذي أنشأه بونايرت في مصر .

(٢) الجبرتي ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ ؛ وقد وردت القصيدة التي قالها الخشاب في هذا الفرنسي في ديوانه الذي جمعه صديقه الشيخ المطار ، ص ٣٥٠ ، ولكن تحت هذا العنوان : « وقال يعف غلاما في حلة سوداء مرصعة » .

(٣) وله مدائح قالها في هؤلاء الأعلام ذكرت في ديوانه : ص ٣٥٠ ،

المناسبات والماجريات ؛ وقال الشعر الرائق ؛ والنثر الفائق . . . (١) ،
ويبدو أن هذه الصداقة بينه وبين بعض المستشرقين من علماء الجملة
مهّدت له السبيل للاتصال الرسمي بقيادة الفرنسيين ؛ فلما أعيد تأسيس
الديوان في عهد « مينو » اختير الشيخ إسماعيل ليكون أميناً لمحفوظات
الديوان ؛ أو على حد تعبير الجبرتي « كاتب سلسلة التاريخ » ؛ فكان
هو المتقيد برقم كل ما يصدر في المجلس من أمر أو نهى ، أو خطاب
أو جواب ، أو خطأ أو صواب ، وذلك لأن « القوم كان لهم مزيد
اعتناء بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم ؛ وأما كن أحكامهم
ثم يجمعون المتفرق في ملخص يرفع في سجلهم بعد أن يطبعوا منه
نسخا عديدة يوزعونها في جميع الجيش حتى لمن كان منهم في غير مصر
من قرى الأرياف ؛ فنجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير
منهم (٢)

وقد أخطأ كل من جورجى زيدان ؛ والأب لويس شيخو فهم هذا
النص ؛ فأثبتا في كتابيهما عن تاريخ الآداب العربية في القرن ١٩ أن
هذه السجلات التي كان يكتبها الخشاب تعتبر أول صحيفة عربية صدرت
في الشرق ؛ قال زيدان : « إن هذه النشرة التي كان يدونها الخشاب ،
وتطبع ثم توزع على الجنود تشبه أن تكون أول جريدة عربية رسمية
لكنها عسكرية » (٣) . ثم قال في نفس المرجع ص ٥٢ إن الفرنسيين

(١) الجبرتي ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ .

(٢) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٣) جورج زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ١٢ .

أنشأوا في مصر « ديوانا للقضايا كان يصدر صحيفة اسمها « التنبيه »
ينشرون فيها ما يجري فيه . ويفرقونها على العمال . وكان يحررها
السيد إسماعيل الخشاب . فهي كالصحيفة العسكرية أو القضائية ،

وقال شيخو استنتاجا من نص الجبرتي : « فهذه كما ترى جريدة يومية
وهي أول جريدة ظهرت في العربية » (١) . وواضح جدا من عبارة
الجبرتي أن الخشاب لم يكن إلا كاتب الديوان أو مسجل مضبطته وإذا
كانت هذه العناية بتدوين ما يقال في الديوان جديدة وغريبة على الجبرتي
فقد عللها بعناية القوم « بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم »
لأنهم كانوا « يجمعون المتفرق في ملخص ، ويوزعون « في جميع الجيش »
ولا يعقل أن يوزع هذا الملخص في جميع الجيش — الفرنسي طبعا —
باللغة العربية . والصحيح أن هذا الملخص الذي كان يطبع وتوزع
نسخ منه في جميع الجيش حتى لمن كان في الأرياف هو الصحيفة
الفرنسية Le Courier de l'Égypte التي كانت تصدر (٢) كل ٥ أيام .
وقد يكون الباعث لهذين المؤرخين على هذا الاستنتاج ما ذكره
الجبرتي بعد ذلك من أن الخشاب اختار لنفسه بعض ما ورد في هذه
المضابط . فإنه يقول : « فجمع من ذلك عدة كراريس ولا أدري ما فعل
بها » . والذي تذكره المراجع الفرنسية أن الجنرال « مينو » أصدر
مرسوما في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٠٠ بإنشاء جريدة عربية اسمها « التنبيه » (٣)

(١) شيخو ، آداب اللغة العربية في القرن ١٩ ، ج ١ ، ص ١٥ — ١٦ .

(٢) إبراهيم عبده ، تاريخ الوقائع المصرية ، ص ٥ .

(٣) Roussau, Kleber et Menou en Egypte, pp. 375 — 377 ;

Rigault, Le General Abdalla Menou et la dernière phase de
'l'expédition d' Egypte' p. 161.

l'Avertissement ، واختار السيد إسماعيل الخشاب ليكون رئيساً لتحريرها، وذلك تحت إشراف أعضاء الديوان من العلماء . ويكون من أغراضها البحث في أعمال الديوان وأعمال الحكومة الفرنسية ونشر الأخبار الداخلية والخارجية وبعض المقالات في الفنون والعلوم والأخلاق... الخ ويقول الدكتور إبراهيم عبده : « على أن الآمال التي علقت على ظهور التنبيه لم تتحقق إذ أن الظروف السياسية واضطراب الأمن كل ذلك حال دون ظهور الجريدة . وبقي مرسوم إنشائها معطلا حتى جلا الفرنسيون عن مصر » (١) .

وقد ظل الخشاب يلي وظيفته هذه في الديوان « ضحوة يومين في الجمعة ، طول عهد « ميتو » حتى خرجت الحملة من مصر وذلك مقابل أجر شهري قدره سبعة آلاف نصف فضة

وكانت الصداقة تربط بين هذين العالمين — وأحدهما مؤرخ والثاني شاعر — وبين عالم ثالث جليل هو الشيخ حسن العطار ، يقول الجبرتي عن صديقيه : « فكانا كثيرا ما يبيتان بداري لما بيني وبينهما من الصحبة الأكيدة والمودة العتيدة ، فكانا يرتاحان عندي ويطرحان التكاليفات . . . ثم يتجاذبان أطراف الكلام فيجولان في كل فن من الفنون الأدبية والتواريخ والمحاضرات . . . وكانت تجرى بينهما مناديات أرق من زهر الرياض ، وأفك بالعقول من الحدق الأمراض وهما حينئذ فريدا وقتهما ووحيدا عصرهما . . . » (٢)

(١) المرجع السابق ، ص ٦ .

(٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ ؛ وفي الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٧٢

صورة خطاب ورد إليه من صديقه العطار في سنة ١٢١٥ هـ ، وكان حينذاك مقيما في أسبوط ، يصف له فيه الطاعون الذي انتشر في جميع أنحاء مصر في تلك السنة

وكانت أسرة العطار مغربية الأصل . كما كان أبوه عطارا . ولكن
الشيخ حسن مال لدراسة العلم منذ الصغر ، فشجعه أبوه على ذلك وأعانته ،
فشب شغفا بالعلم والبحث في كل غريب ، وكان شخصية فذة ، وامتاز على
أقرانه بعقلية حرة ناضجة ، فأحس بأن العلوم التي كانت تدرس في الأزهر
حينذاك علوم فجة لا طائل تحتها ، فدرس بنفسه علوم الهيئة والطب ،
والفلك والرياضة ، ومرن على استعمال الاسطرلاب وألف رسالة في
كيفية العمل به وبالربعين المقنطر والمجيب ، وكان يحسن عمل المزاول
الليلية والنهارية (١)

ويقول صديقه ومعاصره الشيخ محمد شهاب الشاعر إنه : « كان
آية في حدة النظر وشدة الذكاء . ولقد كان يزورنا ليلا في بعض الأحيان
فيتناول الكتاب الدقيق الخط الذي تعسر قراءته في وضوح النهار ، فيقرأ
فيه على نور السراج وهو في موضعه ، وربما استعار مني الكتاب في
مجلدين فلا يلبث عنده إلا الأسبوع أو الأسبوعين ، ويعيده إلى ،
وقد استوفى قراءته وكتب في طوره على كثير من موضعه . . . » (٢)
ويذكر تلميذه وصديقه رفاة أنه كان معنياً بالبحث في العلوم غير
الدينية ، وخاصة العلوم الجغرافية والتاريخية ، وأنه وجد بخطه هوامش
على كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء ، وعلى طبقات الأطباء وغيره من
الكتب التاريخية ، وأنه « كان يطلع دائماً على الكتب المهربة من
تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية مع »

(١) أنظر: زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ٢٢٣ ؛ وشيخو ،
الآداب العربية في القرن ١٩ ، ج ١ ، ص ٤٧ .

(٢) علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٤ ، ص ٤٠٠ .

غاية الديانة والصيانة وله بعض تأليف في الطب وغيره . . . (١)
وذكر المنشترق الانجليزى المستر لين : Mr. Lane أن الشيخ
العطار كان واحداً من أكبر علماء مصر الممتازين وقت وجوده بها ،
ولكنه أشار إلى أنه لم يكن متضلعا في العلوم الدينية تضلعه في
الدراسات الأدبية (٢)

وعندما وصلت الحملة الفرنسية إلى مصر كان العطار في الثانية
والثلاثين من عمره فسافر إلى أسبوط ، فلما استقرت الأحوال عاد إلى
القاهرة ، يقول على مبارك باشا : « واتصل بناس من الفرنساوية ،
فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة في بلادهم ويفيدهم اللغة العربية ،
ويقول : إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من العلوم
والمعارف ما ليس فيها ، ويتعجب بما وصلت إليه تلك الأمة من
المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطريق الاستفادة (٣)
أيقظت الحملة الفرنسية إذن عقول بعض علماء مصر وخاصة عقول
هؤلاء الأقطاب الثلاثة . وبهرتهم علوم الفرنسيين وأثرت في فن كل
منهم ، فكانت كتابة الجبرتي في تاريخه بعد الحملة أدق وأكثر نقداً

(١) رفاعه ، مناهج الألباب ، ص ٣٧٥ — ٣٧٦ .

(٢) Lane, The Manners and Customs of the Modern Egyptians, (٢)
p. 22 .

حيث كتب تقريرا للعطار ، وقال إنه كتبه إجابة لرغبته لأنه عندما علم أن مستر
لين سيكتب بعد عودته لبلاده كتابا عن مصر وأهلها طلب منه أن يشير إلى معرفته
به ، وأن يذكر رأيه فيه .

(٣) على مبارك ، الحطط التوفيقية ، ج ٤ ، ص ٣٨ .

لسير الحوادث ورجالها مما كانت عليه قبل الحملة . . . (١) ؛ كما أصبح شعر الخشاب أرق حاشية وأساس أسلوبا ؛ أما العطار فقد انحرف عن علماء عصره وترك الدراسات الدينية واللغوية جانبا . وعنى عناية كبيرة بالدراسات الأدبية، وكون له في هذا الميدان مدرسة جديدة كان من تلاميذها الذين حذوا حذوه : الشيوخ إبراهيم الدسوقي، ومحمد عياد الطنطاوى ، ومحمد عمر التونسي، ورفاعة رافع الطهطاوى وسيكون لهذه النخبة الطيبة جهود محمودة في حياة الترجمة الحافلة في عصر محمد علي . وقد عاش الشيخ العطار حتى ولي مشيخة الأزهر في عهد محمد علي ، وشهد هذا التغير في الأحوال والمعارف الذى تنبأ به، وخطب في الاحتفال الذى عقد بمناسبة عقد الامتحانات الأولى لمدرسة الطب ، وهو أخيرا صاحب الفضل على تلميذه رفاعة الطهطاوى زعيم النهضة العلمية الحديثة ، وهو الذى قدمه لمحمد علي ليكون إمام البعثة المصرية إلى فرنسا (سنة ١٨٢٦ م) ، وهو الذى أشار عليه أن يسجل مشاهداته في هذه البعثة التى أخرجها رفاعة فيما بعد فى كتابه الممتع و تلخيص الأبريز إلى تلخيص باريز ،

* * *

بدأت إذن الثقافتان الفرنسية والعربية تتصلان إحداهما بالأخرى وتؤثران إحداهما فى الأخرى ، ولو قدر للحملة أن تطول مدتها لكان من المحتم أن يعمل كل فريق على نقل ثقافة الفريق الآخر إلى لغته . وخاصة أن علماء الحملة كان من بينهم عدد من المستشرقين . وكانت

(١) عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد علي ، ص ٢٤ .

مكتبتهم نضم كتباً عربية وفرنسية كثيرة أحضروها معهم . وكانت
مكتبات المساجد والخاصة في مصر تضم بين جدرانها آلاف الكتب
المخطوطة التي كانت تنتظر في صبر نافذ من يفتحها ليقرأها ويعدها للنشر
أو للترجمة، وكانت الحملة أخيراً قد أحضرت معها عدة هذا النشر وآلاته
وهي « المطبعة العربية » أو « مطبعة جيش الشرق » أو « مطبعة الجيش
البحري » كما كانت تسمى وهي في طريقها إلى مصر .

وكانت هذه المطبعة معدة بالحروف العربية والفرنسية^(١) واليونانية
التي جمعها لها نابليون من باريس ثم استكمل لها الأحرف العربية الناقصة
من مطبعة « البروجندا »^(٢) بروما، وقد بدأ القسم العربي من هذه المطبعة
عمله وهو على ظهر البارجة « اوريان Orient »، في عرض البحر .
فطبعت به نسخ من الترجمة العربية للمنشور الذي أعده نابليون لإذاعته
على المصريين؛ وعند ما نزل جنود الحملة الفرنسية إلى أرض مصر سميت
مطبعاتهم « بالمطبعة الشرقية » و « المطبعة الفرنسية » ، وأمر نابليون
أن تنقل بأقسامها الثلاثة إلى منزل قنصل البندقية بالمدينة ، وأن تتركب
أجزاءها وتكون معدة للعمل في ثمان وأربعين ساعة ، وأن تطبع
أربعة آلاف نسخة أخرى من المنشور ؛ ولما استقر الفرنسيون في

(١) انظر Dunne : Printing and Translations under Muhammad Ali of Egypt. p. 327.

(٢) كتب نابليون وهو بعد العدة للحملة إلى العالم الرياضي « موج » والجنرال
« ديزيه » اللذين كانا في روما وقتذاك يوصيهما بالاستيلاء على القسم العربي من
مطبعة البروجندا ، وأن يتفقا مع عدد من المترجمين في ذلك الوسط الذي يكثرون فيه
العارفون باللغات الشرقية والغربية . انظر : Bachatly. Un Membre Oriental du Premier Institut d'Egypte. p. 243.

القاهرة نقلت هذه المطبعة إليها ، وسميت « المطبعة الأهلية (١) » ،
و « مطبعة الجمهور الفرنسي » ، وكان مقرها الأول دار عثمان بك ،
الاشقر بالأزبكية على مقربة من بيت الألفي حيث كان يسكن نابليون ؛
ولما قامت ثورة القاهرة الثانية نقلت المطبعة إلى الجزيرة ، ومنها نقلت
مرة أخرى إلى القلعة وهي مقرها النهائي ، فقد أخذها الفرنسيون
معههم وهم يحلون عن مصر ، وسرى أن محمدا عليا سيعني بعد ذلك بإنشاء
مطبعة عربية أخرى في بولاق ، وهي التي لا تزال موجودة حتى الآن
وتاريخها في الواقع شطر كبير من تاريخ النهضة العلمية الحديثة .

(١) ذكر هذه الأسماء المختلفة للطبعة ، Charles-Roux. Bonaparte, Gouverneur d'Egypte, p. 139. وإن كان الجبرتي يسميها وهي في القاهرة أيضاً
« المطبعة الفرنسية » ؛ عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٩١ ؛ وقد ذكر على غلاف
« مجمع التحريرات المتعلقة إلى ما جرى بأعلام وعماكة سليمان الحلبي قاتل صاري
مسكر العام الكبير » أنه طبع بمصر القاهرة بمطبعة الجمهور الفرنسي في سنة ٨٠٠
من إقامة الجمهورية .

الفصل الثاني

الترجمة الرسمية في عهد الحملة

حاجة رجال الحملة إلى الترجمة الرسمية ، استعانتهم بأسرى المسلمين في مالطة وخاصة المغاربة ، المترجمون في ديوان « مينو » ، هيئات المترجمين الرسميين في عهد الحملة :
أسرى المسلمين في مالطة ؛ المستشرقون من رجال الحملة : « فانتور » ،
« چوبير » ، « براسرفيش » ، « لوماكا » ، « حناروكه » ، « كليمان » ،
« بوديف » ؛ المترجمون السوريون ، هجرات « الشوام » إلى مصر
منذ بدء القرن ١٨ ، الحملة تصطبغ مترجمين سوريين من إيطاليا :
دون إلياس فتح الله ، يوسف مسابكي ، أنطون مشعرة ؛
مترجمون سوريون من مصر : يوسف فرحات ،
ميخائيل كهيل ، القس رفايل ، إلياس نقر ،
نصر الله ، عبود وميخائيل الصباغ ، نقولا
الترك ؛ المترجمون المصريون ، صالة
الأقباط بالفرنسيين ، الفرنسيون
يعلمون بعض الشبان الأقباط اللغة
الفرنسية ، لبوس بقطر ،
الرأي في الترجمة الرسمية
في عهد الحملة .

ولكننا قد نتساءل بعد هذا . ألم يكن للحملة — على الرغم مما
كان يكتنفها في الداخل والخارج من اضطرابات وقلق — أثر في
الترجمة عن العربية إلى الفرنسية أو عن الفرنسية إلى العربية في هذه
السنوات الثلاث التي قضتها في مصر .
والحقيقة أننا نستطيع أن نجيب على هذا السؤال بأنه كان في مصر

إبان وجود الحملة بها نوعان من الترجمة : ترجمة رسمية ، و ترجمة علمية .
فالحملة من الناحية الرسمية كان لها أثر في هذا النقل ، وكانت في أشد
الحاجة إلى مترجمين دائمين ينقلون عنها الأوامر ، ويترجمون المنشورات
ويسجلون محاضر الدواوين ، ويكونون الوسيطاء في نقل الحديث بين
الحكام والمحكومين . وقد استعانت أول الأمر بأناس غرباء عن
مصر أجضرتهم معها أول قدومها ، وهم جماعة من أسرى البحارة
المسلمين الذين كانوا تحت أيدي فرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة ،
وقد اشتركوا مع المستشرقين من علماء الحملة في ترجمة المنشور الذي
أعدّه نابليون بالفرنسية ، والذي طبع على ظهر البارجة « الشرق
L'orient » ، — إحدى سفن الأسطول — في المطبعة العربية ليكون
معداً للتوزيع على المصريين وقت نزول الفرنسيين إلى مصر ؛
يقول الجبرتي عن هؤلاء الأسرى : « كانت الفرنسيين حين حلولهم
بالألكندرية كتبوا مرسوما ، وطبعوه ، وأرسلوا منه نسخا إلى
البلاد التي يقدمون عليها تطميناً لها ، ووصل هذا المكتوب مع جملة
من الأسارى الذين وجدوهم بمالطة ، وحضروا صحبتهم ، وخضر منهم
جملة إلى بولاق ، وذلك قبل وصول الفرنسيين يوم أو يومين ، ومعهم
منه عدة نسخ ، ومنهم مغاربة ، وفيهم جواسيس ، وهم على شكلهم
من كفار مالطة ، ويعرفون باللغات . . . (١) » .

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٤٤ ، والترجمة العربية للمنشور ركيكة العبارة ،
ضعيفة الأسلوب ، أنظرها في الجبرتي ، نفس الجزء والصفحة ، أما الأصل الفرنسي
فجميل الأسلوب ، وصورته في الوثيقة رقم ٢٧٢٣

فلما هزم المماليك ، وفروا جنوبا وشرقا ، ووجد المصريون أنفسهم بلا جيش يحميهم أو يدافع عنهم اجتمع شيوخهم وعلمائهم في الجامع الأزهر ، وتشاوروا ، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الافرنج . . . ، وأرسلوها صحبة شخص مغربي يعرف لغتهم ، وآخر صحبته ، فغابا وعادا ، فأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقرأها عليه ترجمانه ، ومضمونها الاستفهام عن قصدهم ، فقال على لسان الترجمان « وأين عظماءكم ومشايخكم ؟ » (١) .

ولما استقر الفرنسيون في القاهرة أخذوا يتتبعون من بقي بها من عائلات المماليك ، ويهاجمون بيوتهم ، ويستولون على أموالهم ، وكانوا في تنقلاتهم يستصحبون معهم المترجمين ليقوموا بنقل الحديث بينهم وبين زوجات الأمراء ، وأولادهم ، وخدمهم ، يذكر الجبرتي في حوادث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ أن جماعة من جنود الفرنسيين ذهبوا إلى « بيت رضوان كاشف . . . وصحبتهم ترجمان ومهندس » (٢) .

وبدأ نابليون يضع الأسس لحكومة جديدة يشترك فيها زعماء المصريين ، ليستعين بهم في إدارة شؤون البلاد ، وإقناع الأهالي ، وقد نص في الأمر الصادر بتكوين الديوان أن يكون أعضاؤه تسعة ينتخبون من بينهم واحدا للرياسة ، وأن يختاروا سكرتيرا « كاتم سر » من غير الأعضاء ، ويعينوا اثنين من الكتبة والتراجمه يعرفان الفرنسية والعربية .

(١) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٦ .

(٢) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٦ .

والجبرتي يتحدث عن بعض أعمال هذين المترجمين في شذرات متفرقة نستطيع أن نتبين منها أن « الترجمان ، كان الناقل لأوامر الفرنسيين ، والقارىء لأوامرهم . وفرماناتهم في الديوان ، وأنه كان يضمن كلامه العربى كلمات فرنسية مما يدل على أن هذين المترجمين كانا من علماء الحملة الفرنسيين العارفين باللغة العربية ، يقول الجبرتي عند كلامه عن الجلسة الأولى للديوان : « فلما استقر بهم الجلوس شرع ملطى القبطى الذى عملوه قاضى فى قراءة فرمان الشروط (١) ، وفى المناقشة ، فابتدر كبير المديرين فى إخراج طومار آخر . وناول له للترجمان فنشره وقراه . . . » (٢) . ثم يقول عند الكلام على انتخاب رئيس الديوان : « ثم قال الترجمان : نريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصا متكم يكون كبيرا . ورئيساً عليكم . . . فقال بعض الحاضرين : « الشيخ الشرقاوى ، فقال : « نو . . . نو . . . نو . . . » وإنما ذلك يكون بالقرعة . . . إلخ » (٣) .

(١) هذه الوثائق من منشورات ، وفرمانات ، وأوامر ، وخطب ، . . . إلخ كتبت كلها أولا باللغة الفرنسية ، وأصولها موجودة فى المراجع الفرنسية التى كتبت أيام الحملة الفرنسية وعنها ، ولسكن توجد صور لترجمة الكثير منها متفرقة فى الجبرتي عجائب الآثار ، أنظر مثلا : منشور نابليون المصريين ، ج ٣ ، ص ٤ — ٥ ، وخطبة افتتاح الديوان ، ج ٣ ، ص ٢٣ ، وترجمة خطاب وارد من نابليون لأعضاء الديوان أثناء حصاره لسكا ، ج ٣ ، ص ٧١ . . . إلخ . . . إلخ ؛ والرافعى . يقارن كثيرا بين الأصل والترجمة فى هوامش الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية . وبين دائما مواطن الضعف فى الصورة العربية ، والاختلاف بين الأصل والترجمة .

(٢) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ٢٣ .

(٣) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

وأزاد نابليون أن يصبغ المجتمع المصري بالصبغة الفرنسية .
فانتهم فرصة اجتماعه بالمشايخ الذين اختيروا أعضاء للديوان ، وأحضر
لكل منهم طيلسانا وشارة مثلثي الألوان ، وبدأ فألبس الطيلسان
للشيخ الشرقاوي ، فثار ، وألقى به إلى الأرض ، « واستغنى ، وتغير
مزاجه ، وامتقع لونه ، واحتد طبعه ، فقال الترجمان : « يا مشايخ أتم
صرتم أحببا لصاري عسكر ، وهو يقصد تعظيكنم ، وتشريفكم بزيه
وعلامته . . . » ، وغضب نابليون لفعلة الشرقاوي غضبا شديدا ،
« وتكلم بلسانه ، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال : عن الشيخ
الشرقاوي إنه لا يصلح للرياسة . . . إلخ » (١) .

ولم يكن الشيخ السادات بين الحاضرين ، ولكنه أتى بعد انصرافهم
« فلما استقر به الجلوس بش له وضاحكه صارى عسكر ، ولطفه في
القول الذي يعربه الترجمان ، وأهدى له خاتم الماس (١) » ، ثم ألبسه
الشارة المثلثة الألوان ، فلم يركز ملائه أن لبسها كفرأ ، بل تركها حتى
خرج فزعها .

وعند ما أصدر الفرنسيون أوامره بتنظيم دفن الموتي ، وشرع
بعض رجالهم في هدم التراكيب المبنية على المقابر في مقبرة الازبكية ،
وتسويتها بالأرض ، ثار القاهريون وخرجوا في مظاهرة كبيرة إلى
بيت نابليون ، « ووقفوا تحت بيت صارى عسكر ، فنزل لهم المترجمون
 واعتذروا بأن صارى عسكر لا علم له بذلك . . . » (٢) .

(١) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

وذكر الجبرتي عند كلامه على تنظيم الديوان في عهد نابليون ،
وتقسيمه إلى « خصوصى وديموى ، أسماء أعضاء الديوان ، ثم قال :
« ومعهم وكلاء ومباشرون من الفرنسيين ، ومترجمون . . . » (١) .
هذا ؛ ولم تخضع أطراف مصر للفرنسيين في الحال ، فأرسل
نابليون جنوده لإخضاع الصعيد (٢) ، وشمال الدلتا الشرقى ، وتنظيم
هذه البلاد ، ثم كوتت في عواصم المديريات دواوين صغيرة على نمط
الديوان الكبير في القاهرة ، وكان يصحب هذه الكتائب من الجيش
الفرنسى ، ويعين رجال الإدارة منهم في حكم الأقاليم نفر من هؤلاء
المترجمين ، كذلك اصطحب الجيش الفرنسى بعضاً منهم معه في حملته
على الشام .

الجبرتي أيضاً أن المشايخ والأعيان ذهبوا لمقابلة نابليون
والسلام عليه بعد عودته من الإسكندرية عقب موقعة أبي قير البرية ،
« فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان : إن صارى عسكر
يقول لكم إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة في غيابه ، وأما
في هذه المرة فليس كذلك ، لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيين .

(١) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

(٢) توجد في دار الكتب وثيقة من ورقة واحدة بها قائمة تشمل على بيان
الكلف المأخوذة من البلاد الأتطيجية لاحتياج العسكر الفرنساوى المطارد لمراد بك
ابتداء من يوم الأربعاء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٢١٤ (٢٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩) ،
لغاية يوم ١٠ رجب من نفس السنة (٨ ديسمبر سنة ١٧٩٩ م) ، وهى جداول
مبين فيها ما أخذ من الأغنام ، والبقر وخلافها من كل بلدة من البلاد المذكورة ،
وفى أحد وجهى الورقة ترجمتها باللغة الفرنسية ، انظر فهرس الكتب العربية
الموجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٩٣ .

لذيرجعون ، بل يموتون وأن المهدي والصاوي ما هم « بونو »
أى ليسوا بطيبين » (١) .

وعاد نابليون إلى فرنسا ؛ وولى كليبر قيادة الحملة ؛ فظل للترجمة
الرسمية شأنها الأول ؛ وللمترجمين مركزهم الهام كوسطاء لنقل الحديث
بين الحكام والمحكومين وترجمة الاوامر والفرمانات والوثائق
الرسمية ، يقول الجبرتي عند كلامه على مشروع اتفاقية العريش :
« ولما ورد ذلك الطومار المتضمن لعقد الصلح والشروط عربوه
وطبعوا منه نسخا كثيرة فرقوا منها على الاعيان ؛ وألصقوا منها
بالاسواق والشوازع » (٢) .

ولما قتل القائد كليبر كونت محكمة فرنسية خاصة لمحاكمة المتهمين ؛
وألف الفرنسيون « فى شأن ذلك أوراقا ذكروا فيها صورة الواقعة ؛
وكيفيتها ؛ وطبعوا منها نسخا كثيرة باللغات الثلاث . الفرنسية ؛
والتركية ، والعربية . . . » ، وطبعوا « من كل لغة قدر خمسمائة نسخة
للكى يرسلوا ويتعلقوا فى المحلات اللازمة . . » (٣) .

وكان الديوان قد عطل فى عهد « كليبر » ، فلما ولى « مينو » قيادة الحملة
أعاد تنظيمه على نسق جديد كما ذكرنا ، وعين له — إلى جانب الاعضاء

(١) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ٨١ .

(٢) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ٨٧ .

(٣) عنوان هذه الرسالة باللغة العربية : « بجمع التحريرات المتعلقة إلى ماجرى
بأعلام ومحاكمة سليمان الحلبي قاتل صارى عسكر العام . كليبر » وطبعت « بمصر
القاهرة بمطبعة الجمهور الفرنسية فى سنة ٨ من إقامة الجمهور » وانظر أيضا :
الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٢٢ ، ١٤٠ ، وفى الصفحة المقابلة صورة للصفحة الأولى
من هذا الكتاب النادر .

الشكل رقم (٢)

مجمع التحيات المتعلقة
إلى ماجري باعلام
وحاكم سليمان الحلبي
قاتل صاري عسكر
العالم كله

بمصر القاهرة
بمطبعة الجمهورية
في سنة ٨ من ألفة الجمهور

صورة الصفحة الأولى من الكتاب المتضمن للترجمة العربية لمخاضر حاكم سليمان
الحلبي وهو من الكتب القليلة التي ترجمت في عهد الحملة وطبعت بمطبعتها بالقاهرة .

من المشايخ — كاتباً عربياً اسمه « الشيخ علي » ، وكاتباً « يومياً » اسمه « قاسم أفندي » ، ومترجماً أول — أو ترجمان كبير — هو « القس روفائيل » ، ومترجماً ثانياً — أو ترجمان صغير على حد تعبير الجبرتي — هو — الياس نضر الشامي » ، وجعل مقر هذا الديوان بيت رشوان يك في حارة عابدين ، وتخصص جناح من هذا البيت لسكن « الوكيل الكوميسير Commissaire فوريه » ، وأعدوا للترجمين والكتبة من الفرنسية مكاناً خاصاً يجلسون به في غير وقت الديوان على الدوام لترجمة الأوراق ، والوقائع ، وغيرها ، (١)

ووصف الجبرتي هيئة انعقاد جلسات الديوان فقال إنه : « إذا تكامل حضور المشايخ يخرج إليهم الوكيل فوريه ، وصحبته المترجمون ، فيقومون له ، فيجلس معهم ، ويقف الترجمان الكبير روفائيل ، ويستمع أرباب الدعاوى ، فيقفون خلف الحاجز عند آخر الديوان . . . وعنده الجاويش . . . ويدخلهم بالترتيب . الأسبق فالأسبق ، فيحكي صاحب الدعوى قضيته ، فيترجمها له الترجمان . . . الخ » (٢) . وكان عمل المترجم الأول في هذا الديوان يشبه عمل سلفه في ديوان نابليون إذ كان يقوم إلى جانب الترجمة بقراءة الأوامر والرسائل والفرمانات ، فقد ذكر الجبرتي في حوادث شعبان سنة ١٢١٥ هـ أن صارى عسكر أرسل « إلى مشايخ الديوان كتاباً ، وقرأه الترجمان الكبير روفائيل . . . » (٣) .

(١) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٢) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٤٥ وهو هنا مصدرقة — لأنه كان عضواً

بهذا الديوان كما ذكرنا .

(٣) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٤٩ ، وانظر أيضاً : ص ١٥٥ .

ولما حضرت الحملة الإنجليزية التركية في سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١) ، لإخراج الفرنسيين كانت الرسائل تأتي تباعا من الجنرال « مينو » في الاسكندرية إلى أعضاء الديوان في القاهرة ، وبدأ الفرنسيون يتقربون إلى المصريين حتى لا ينتهزوا الفرصة فيثوروا ضدهم ، ويزيدوا في متاعهم ، ذكر الجبرتي في حوادث المحرم سنة ١٢١٦ هـ أن القائما مقام « بليار » استدعى إليه مشايخ الديوان و « قال لهم على لسان الترجمان : نخبركم أن الخصم قد قرب منا ، و نرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنسيات . . . » (١) .

وانتهت المعارك بين الجيشين بالصلح والاتفاق على أن يحلو الفرنسيون عن مصر ، وتعود البلاد إلى السلطان ، وفي القاهرة أعلنت الشروط الخاصة بالشعب « في أوراق الصقت بالطرق مكتوبة بالعربي والفرنساوي وفيها شرطان من شروط الصلح التي تتعلق بالعامه » . وفي نفس الشهر دعى الديوان للاجتماع ، « وحضر المشايخ والوكيل ، فقال الوكيل : هل بلغكم بقية الشروط الثلاثة عشر؟ فقالوا : « لا » فأبرز ورقة من كفه بالقلم الفرنسي ، فشرع يقرأها ، والترجمان يفسرها . . . الخ » (٢) .

وبعد أيام عقد الديوان آخر جلساته ، « فاجتمع المشايخ والتجار وبعض الوجاهة « واستوف » الخازن دار ، والوكيل ، والترجمان ، فلما استقر بهم الجلوس أخرج الوكيل كتابا محتوما ، وأخبر أن ذلك

(١) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

(٢) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٩٣ .

الكتاب من سارى عسكر « مينو » بعث به إلى مشايخ الديوان ، ثم
ناول له لرئيس الديوان ، ففضله وناول له للترجمان فقرأه ... الخ ، ثم
أخرج الوكيل « ورقة بالفرنساوى » وقرأها بنفسه حتى فرغ منها ،
ثم قرأ ترجمتها بالعربى للترجمان رفايل ، ومضمونها حصول الصلح
وتمويها ، وهاسيات ليس من ذكرها فائدة ، ولما انتهى من قراءتها
أبرز أيضا « استوف » الخازنذار ورقة ، وقرأها بالفرنساوى ، ثم
قرأ ترجمتها بالعربى للترجمان وهى فى معنى الأولى ... (١) .

وبعد فهذه نبذة متفرقة بما ذكره الجبرتى عن الترجمة الرسمية يؤيد
ما ذهبنا إليه من أن هذا النوع من الترجمة كان له خطره وأهميته أثناء
وجود الحملة الفرنسية فى مصر ، غير أن المراجع المعاصرة لم تعن بذكر
ثبت هؤلاء المترجمين أو التعريف بهم ، ومع هذا فى الفقرات الآتية
محاولة لهذا الإحصاء ، وهذا التعريف .

هيئات المترجمين الرسميين فى عهد الحملة :

من الممكن أن نقسم جماعة المترجمين الرسميين فى عهد الحملة إلى
الهيئات الآتية :

١ — الأسرى الذين كانوا فى جزيرة مالطة (٢) من مغاربة وعرب
وأتراك ، وقد أطلق سراحهم رجال الحملة الفرنسية بعد استيلائهم على
مالطة ، وصحبوهم معهم إلى مصر ، وأطلقوهم فى كل مكان يوزعون

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) Cavinet, l'imprimerie de l'Expedition, etc. pp. 8-9.

منشور نابليون بين المصريين ، وقد قام واحد منهم بحمل رسالة المشايخ إلى نابليون وهو في الجيزة — كما ذكرنا — ولم تذكر النكتب المعاصرة اسم واحد من هؤلاء .

٣ — العارفون باللغة العربية من رجال الحملة الفرنسية ، وأهم هؤلاء :

(١) فانتور Venture

وهو أحد أعضاء لجنة الترجمة بالمجمع المصري ، وأكبر أعضاء هذا المجمع سناً ، قضى أربعين سنة من حياته في الشرق ، فكان مترجماً بالسفارة الفرنسية في تركيا ، ثم مترجماً للغات الشرقية للحكومة الفرنسية في باريس ، ثم مدرسا للغة التركية في مدرسة اللغات الشرقية في باريس ثم سحب الحملة إلى مصر فكان كبير مترجميها ، أو « ترجمان صاري عسكر » كما يسميه الجبرتي ، وكان نابليون يقدره ، ويثق به ثقة كبيرة ، ويرجع إليه في كل ما يتعلق بالشرق والشرقيين ، ومن تلاميذه المعروفين : المسيو مارسيل ، والمسيو جوبير الآتي ذكرهما .

ولما سار نابليون بحملته إلى سوريا استصحب معه المسيو « فانتور » ولما مرض هناك بالسنتاريا ، ومات فتألم نابليون لموته ، وأرسل بنعيته إلى الديوان في خطاب تاريخه المحرم سنة ١٢١٤ هـ (يونيو سنة ١٧٩٩) قال فيه : « وقتلته مات من تشویش ، هذا الرجل صعب علينا جدا ، والسلام ... » وعقب الجبرتي على هذا الخبر بقوله : « وقتلته هذا ترجمان صاري عسكر ، وكان ليديا متبحراً ، ويعرف باللغات التركية والعربية ، والرومية ، والطللياني ، والفرنساوي » (١) .

(٢) جوبير Piere Amébee Jauper (١٧٧٩ - ١٨٤٧)

(١) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ٧١ .

أحد المستشرقين من علماء الحملة ، وواحد من تلاميذ «دي ساسي» ،
تخرج في مدرسة اللغات الشرقية في باريس ، وكان تلميذاً لثاقبورتور ،
فلما توفي الأستاذ اختار نابليون تلميذه ليشغل مركزه ، ويكون كبيراً
لمترجمي الحملة ، وقد كتب أبحاثاً كثيرة (١) نشرت في كتاب وصف
مصر ، وبعد جلاء الحملة عين مدرساً للغة التركية في مدرسة اللغات
الشرقية ، ثم اختير مدرساً للفرسية في «الكوليج دي فرانس» ، وفي
آخرىات أيامه عين ناظراً لمدرسة اللغات الشرقية .

(٣) براسرفيش .

أحد أعضاء لجنة الترجمة بالمجمع المصري ، ويسميه الجبرتي :
« السيتوين الخواجه داميانوس براشويش كاتم السر وترجمان
ساري عسكر » (٢) ويبدو أنه خلف « جوير » فتولى هذا المركز بعده
في عهد « الجنرال مينو » وقد قام بالاشتراك مع زميله لوماكا « l'Homaca »
بترجمة أقوال المتهمين بقتل الجنرال « كليبر »

(٤) لوماكا « l'Homaca »

عضو آخر من أعضاء لجنة الترجمة بالمجمع ، وقد اشترك مع زميله
« براسرفيش » كما ذكرنا في النقل عن سليمان الحلبي وزملائه ، وترجمة

(١) وقد ترجم « جوير » جغرافية الشريف الأديبي « نزهة المشتاق »
إلى اللغة الفرنسية في مجلدين ، وطبعت في باريس سنة ١٨٣٦ — ١٨٤٠ ، أنظر :
شيفو ، المرجع السابق ، ج ١ ص ٦٦ .

(٢) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، وأنظر
أيضاً : « مجمع التحريرات المتعلقة إلى ما جرى بأعلام ومحاكمة سليمان الحلبي » .
ص ١٣ ، ٤٧ ، ٥٧ .

الشكل رقم (٣)

يخبرهم أم يرسل هم حالا ساعي
فبعد خلاص الفحص المذكور انقرا على
المنهوم وهو حرم خط يده مع المبلغ وكانت السور
والترجمة

حرم به مصر في اليوم والشهر والسنة المحررة اعلا
امضت سليمان الحلبي بالعربي
امضت المبلغ سارتلون
امضت الترجمة برانشويش
امضت كانت السور بينه

الترجمة

صورة الصفحة ٤٧ من الكتاب المتضمن الترجمة العربية لمحاضر محاكمة سليمان
الحلبي قاتل الجنرال كليبر وبها اسم واحد من مترجمي الحملة وهو « برا شويش »
وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة الحملة بمصر.

أقوالهم أثناء التحقيق معهم ، وكانت له جهود أخرى في ترجمة الوثائق الرسمية^(١) كرسائل « مينو » التي أرسلها في أيام الحملة الأخيرة من الأسكندرية إلى أعضاء الديوان بالقاهرة .

ويبدو أن هؤلاء الأقطاب الأربعة كانوا يكونون الهيئة العليا للترجمة الرسمية ، فقد كانوا جميعاً أعضاء في لجنة الترجمة بالمجمع العلمي أو « مدرسة العلماء في بر مصر »^(٢) ، وشغل ثلاثة منها منصب كبير مترجمي الحملة أو « ترجمان صاري عسكر » ، واشترك الرابع في ترجمة كثير من الوثائق الرسمية الهامة .

ومع هذا فقد كان هناك نفر آخرون من جنود الحملة وقوادها على علم بالعربية ، فساهموا بقسط أقل في الترجمة الرسمية ؛ من هؤلاء :

أ — « حنا روكه »^(٣) ، وقد اشترك مع « براسرفيش » ، ولوماكا ، في ترجمة بعض أقوال المتهمين بقتل « الجنرال كليبر » .

ب — « كليمان » ذكر الجبرتي أنه كان يقوم أحياناً بالترجمة في بعض جلسات الديوان ، قال في حوادث ذي الحجة ١٢١٥ هـ (ابريل ١٨٠٠) : « حصلت الجمعية ، وحضر الخازندار ، والوكيل ... وبعض التجار .. ، و « كليمان » ، الترجمان ، فتكلم واستوف » ، وترجم

(١) أنظر جهوده في ترجمة أقوال الحلبي وزملائه في : « مجمع التحريرات .. الخ » ص ١٣ ، ٣٤ ، ٥٧ ، ٦٣ ؛ والجبرتي ، الصفحات المذكورة في الهامش السابق ؛ أما عن الوثائق الأخرى فقد ذكر الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٩٤ إحدى رسائل « مينو » للديوان ، وقال في نهاية النص إنه : « من ترا كيب لوماكا الترجمان » .

(٢) مجمع التحريرات ، ص ٣ .

(٣) مجمع التحريرات ، ص ١٣ .

الشكل رقم (٤) .

(١٢)

فقال لهم ان مقصودنا يتحدث معه فقالوا له ان كل
ليله ينزل في جنينته ثم صباح تاربخه شاف
صاري عسكر معدي للمقياس وبعد ما سألني الي
المدينة فبعه بحين ما فديرة

هذا الفحص صار من حضرة صاري عسكر منو
بضمور باقي صواري العساكر الكبار ولازمين بيت
صاري عسكر العام تم اختتم بامضة صاري عسكر
منو والافتردار ساريلون في اليوم والشهر والسنة
المحررة اعلاه ثم اتقري علي التهورم وهو ايضا خط
خط يده واسمه بالعربي . (سليمان)

- * امضة صاري عسكر عبد الله منو *
- * امضة صاري عسكر فريدك *
- * امضة صاري عسكر مريديه *
- * امضة صاري عسكر داملس *
- * امضة الجنرال والنتين *

(١٣)

- * امضة الجنرال موراند *
- * امضة الجنرال مارتينه *
- * امضة دفتردار البحر لروا *
- * امضة الدفتردار ساريلون *
- * امضة التمرجان لوماكا *
- * امضة التمرجان حنا روكه *
- * امضة داميانوس براشويش كاتم السرق قرجاك *
- * صاري عسكر العام *

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الصفحة ١٢ و ١٣ من الكتاب المنضمن الترجمة العربية لمحاضر محاكمة سليمان الحلبي
وبها ذكر لثلاثة من مترجمي الحملة وهم : لوماكا ، وحنا روكه ، وبراشويش.

عنه الترجمان أن سارى عسكر الكبير «مينو» يقرئكم السلام... الخ» (١)
ج — ومنهم مترجم ثالث اسمه «أبي ديف» هكذا ذكره
الجبرتي — فقد وصف الجلسة الأخيرة للديوان بعد أن تم الصلح بين
الفرنسيين من ناحية والإنجليز والأتراك من ناحية أخرى ، ونقل
نص الخطاب التي أقيمت في تلك الجلسة ، وكانت آخرها خطبة ألقاها
«استوف» باللغة الفرنسية ، ثم قرأ المترجم ترجمتها باللغة العربية ،
قال الجبرتي بعد ذكر هذا النص : «وهو من تعريب «أبي ديف»
وإنشاء «استوف» بالفرنساوى ...» (٢) .

٣ — المترجمون السوريون:

كان السوريون أكثر شعوب الشرق الأدنى اتصالا واختلاطا
بشعوب أوربا المطللة على البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى
ففي ربوع بلادهم كانت ميادين الحروب الصليبية ، وفي شواطئ سوريا
قامت الإمارات اللاتينية ، وعاش أخلاط من هذه الشعوب اللاتينية ،
وانتهت الحروب الصليبية ، ولكنها خلفت في الشام طائفة من
المسيحيين تدين بالمدن الكاثوليكي ، وتعترف بالولاء لزعيم الكاثوليك
ورئيسهم «البابا» المقيم في روما ، ولذلك ظلت رحلة البطارقة والمطارنة

(١) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٦٥ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٩٦ ، حوادث صفر ١٢١٦ (يونيو ١٨٠١) ؛
و «أبي ديف» هذا هو السيوف «Baudouin» الناجر الفرنسي المقيم
بالقاهرة . وكان يعرف اللغة العربية ، وقد استعان به رجال الحملة في أعمال كثيرة
وناسة في الترجمة ، أنظر : Histoire Scientifique et Militaire de
l'Expédition Française en Egypte, t.111.

والقساوسة السوريين دائمة إلى « روما » لزيارة مقر البابوية ، ولتلقى العلوم الدينية في مدارس « روما » الدينية ، وكثير — تبعاً لهذا — العارفون باللغتين الفرنسية والإيطالية بين كاثوليك سوريا .

وفي القرنين السابع والثامن عشر اضطريت أمور الحكم العثماني ، وزاد طغيان الباشوات الأتراك في الشام ، ونال الطوائف المسيحية شيء من الاضطهاد ، « ولما ساعد نحر الدين المعنى أمير لبنان الشهير المرسلين الإفرنج الكاثوليكين على النزول في سوريا ولبنان وفلسطين ، لجأ فريق من السوريين المسيحيين إلى قناصل الإفرنج ، وتمذهبوا بمذهبهم طمعاً في حماية دولهم ، والفوز بشيء من المساعدة المادية ، فثار عليهم رؤساء الأرثوذكس اليونانيون ، وأخذوا يزرعون البغضاء والتعصب الديني في قلوب إخوانهم السوريين الأرثوذكس ، ويأجأون إلى " ريك القسطنطيني ليستصروا الأوامر في اضطهاد الكاثوليك . » فانتهر الحكام العثمانيون هذه الفرصة الثمينة ليضطهدوا المسيحيين من المذهبين الكاثوليك والأرثوذكسي . . ، فأخذوا ينزحون إلى القطر المصري في أوائل القرن الثامن عشر . وزادت مهاجرتهم بعد اضطهاد سنة ١٧٢٥ الشهير ، وكان أغلبهم من دمشق الشام ، فلقبوا بالشوام ، وعم هذا اللقب كل السوريين المهاجرين إلى مصر (١) .

ولجأ هؤلاء « الشوام » إلى القاهرة أولاً ، ودمياط ثانياً ، والاسكندرية ثالثاً ، وهي المدن المصرية الكبرى ذات الصدارة حينذاك في التجارة والصناعة ، واستغلوا في هذه المدن نشاطهم

(١) بولس قرأى ، السوريون في مصر ، الجزء الأول ، القسم الأول ص ٨٢-٨٣ .

التجارى والصناعى الممتاز ، فسرعان ما أثروا ، وكونوا ثروات وجاتيات كبيرة لها شأن فى تاريخ مصر الاقتصادى وقتذاك ، ووصلت أخبار هذا النجاح إلى إخوانهم فى سوريا ولبنان فتوالت الهجرات وتابعت ، لهذا يرجع الأب قسطنطين الباشا هجرة مسيحي الشام إلى مصر إلى سببين : « قوة الجذب وقوة الدفع ، إذ كانت أخبار نجاح من تقدم منهم إلى هذا القطر تجذب سواهم ، وكان الاضطهاد الدينى الذى كان يجرى فى مدن الشام يدفعهم بقوة إلى هذا القطر » (١) . وكانت موانئ إيطاليا التجارية ، وخاصة البندقية ، وجنوة ، وليفونو ، تضم منذ القرن الخامس عشر جاليات شرقية كبيرة ، وإذا كانت موانئ مصر الشمالية على اتصال تجارى دائم بموانئ إيطاليا فقد تجددت رحلة السوريين من مصر إلى موانئ إيطاليا للتجارة أحيانا ، وهربا من اضطهاد المماليك أحيانا أخرى (٢) .

وقد بلغ من ازدياد نفوذ هؤلاء المهاجرين المالى والاقتصادى أن طغوا على طائفتى اليهود والأقباط اللتين كان لهما احتكار الوظائف المالية فى مصر منذ عهد طويل ، فى سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨-١٨٦٩م) « قبض على بك الكبير على المعلم إسحق اليهودى معلم الديوان ببولاق »

(١) قسطنطين الباشا ، محاضرة فى تاريخ طائفة الروم الكاثوليك فى مصر ،

ص ٧ .

(٢) يذكر الباشا ، المرجع السابق ، ص ١٨ ، أسماء أفراد من أسر : سكاكيني وخلاط ، وخير ، وبوكتى ، وحوى ، وعنخورى ، ممن هاجروا إلى « ليفونو » عن طريق ديباط فى القرن السابع عشر .

وضربه حتى مات،^(١)، ثم أعطى التزام هذا الديوان للمعلم ميخائيل فرحات السورى، وأصبح هذا الالتزام المالى الهام وقفا على مسيحي السورين منذ ذلك الحين، فقد حل المعلم ميخائيل الجمل بعد قليل محل ميخائيل فرحات، ولكن على بك الكبير سرعان ما غضب على الجمل فعزله، وأعطى الديوان للمعلم يوسف البيطار الحلبي، فاستغاث الجمل بصديقه المعلم ابراهيم الصباغ مستشار ظاهر العمر أمير عكا، وحليف على بك، فأجاب رجاءه، ونسعى لدى على بك حتى أعيد الديوان للجمل والبيطار معا، وفي سنة ١١٨٨ (١٧٧٤م) توفي، فأعطى التزام الديوان للمعلم أنطون فرعون قسيس^(٢)، زعيم مسيحي الشام في مصر وقتذاك، وأثرى أثريائهم.

(١) الجبرتى، ج ١ ص ٣١١؛ وإن كان قرألى، المرجع السابق، ص ٨٥ يسميه يوسف بن لاوى الاسرائيلي (؟).

(٢) أنظر: قرألى، السوريون في مصر ج ١، ق ١، ص ٨٥ — ٨٦؛ وج ١، ق ٢ ص ٢٨؛ والباشا، المرجع السابق، ص ١٤ — ١٦، ٥٤ — ٥٧؛ هذا وقد كان لأنطون فرعون شأن كبير فيما بعد، فقد أرادت حكومة الامبراطورية الرومانية المقدسة (دولة النمسا) أن تعيد فتح طريق للتجارة مع الهند، وندبت لتحقيق هذا المشروع أنطون فرعون قسيس، وأنعم عليه الامبراطور (يوسف) الثانى بلقي: (بارون) و (كونت)، ولكن المشروع لم يتوج بالنجاح فخشي أنطون غضب مراد ابراهيم، وفر مع أخوته الى ايطاليا في سنة ١١٩٨ (١٧٨٤) حيث أقام في (تريستا)، وعند ما خرج المعلم يعقوب القبطى من مصر بعد مغادرة الحملة لها، وعرض مشروعه لاستقلال مصر على انجلترا طلب أن ترسل الكتب إليه عن طريق: (الكونت قسيس) المقيم في (تريستا)؛ أنظر: شفيق غربال، الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس، ص ٢٦، هامش ٢ حيث يصف أنطون خطأ بأنه =

لهذا لا نعجب إذا عرفنا أن نابليون، أرسل — وهو يعد العدة للحملة — إلى العالم «مونيخ» و«الجنرال ديبريه» في روما، يأمرهما أن يتعاقدا مع بعض المترجمين من الشرقيين المقيمين في إيطاليا، وقد كان من بين المترجمين الذين تعاقدوا معهم اثنان من السوريين المقيمين في إيطاليا — من طائفة الروم الكاثوليك — هما دون الياس فتح الله ويوسف مسابكي (١) ..

وجاء في مذكرات القس أنطون مارون أن الفرنسيين — وهم في طريقهم إلى مصر — طلبوا بعض الشرقيين للترجمة حيث صمموا النية للحضور للأقاليم المصرية، فخرج معهم جملة رهبان، وتقلدوا السلاح ومن جملةهم «الراهب أنطون مشحرة» الذي نزع «الأسكيمو» والثوب الرهباني، وتقلد السلاح .. وحضر مع الفرنسية لمصر (٢).

== كان مصريا قبطيا؟ وانظر عن فرعون، وأسرته : الباشا المرجع السابق ص ٢١، ٣٦ — ٣٦، ٣٦، ٥٢ — ٥٧ ؟ وعن مشروع الامبراطورية الرومانية المقدسة انظر :

Charles-Roux : "Autour d'une Route" pp. 156-159., & Hoskins, British Routs to India", pp. 23, 26-27

(١) أنظر. Corresponp. de Napeleon ler., t.V, p, 65; Canivet.

l'imprimerie de l'Expédition d'Egypte. les journaux, les proces-Verbeaux de l'Institut, dans: Bull. de l' Inst Egyptien, 5e. serie t. III, 1909, p. 3-5 Bachatly, Un Membre Oriental, ect , etc, p. 243.

(٢) قرألي، المرجع السابق، ج ١، ق ٢، ص ٧٤، وأنظر أيضا : ص ٧٢ وقد ذكر Jaubert في رسالة منه إلى أخيه تاريخها : 20 Messidor AN.VI أن قسيسا مارونيا قام على ظهر بعض سفن الحملة بقراءة المنشور العربي للأسرى من المغاربة والعرب والترك، وشرحه لهم مع بيان مهمتهم في نشر وتوزيع المنشور عند النزول إلى البر؟ ولنا لندرجح أن يكون هذا القسيس هو الراهب أنطون مشحرة

المذكور، أنظر : Ganivet, Op. Cit. p. 9.

ولما بدأ الفرنسيون ينظمون شئون الحكم في مصر كان من بين أعضاء الديوان الذي أنشأه نابليون اثنان من السوريين ، هما : يوسف فرجات وميخائيل كحيل (١) .

وكان من الطبيعي أن يستعين الفرنسيون بمن في مصر من المسيحيين وخاصة السوريين لمعرفةهم باللغة العربية ، وباللغتين الفرنسية والإيطالية ولاتفاق الطائفتين في اعتناق دين واحد ، ومذهب واحد ، فكان « أنصارهم من نصارى البلد الأقباط ، والشوام ، والأروام (٢) » . ولما انتهى نابليون من وضع النظام الجديد لحكم مصر فكر في أن يتقرب إلى والى عكا أحمد باشا الجزار ، وأن يكتسب صداقته ، فأرسل إليه هدية يحملها فرنسي ، « وكان بصحبته أنفار من النصارى الشوام في صفة تجار ، ومعهم جانب أرز ونزلوا من ثغر دمياط في سفينة من سفائن أحمد باشا ، فلما وصلوا إلى عكا وعلم بهم أحمد باشا أمر بذلك الفرنسيون فنقلوه إلى بعض النقاير ، ولم يواجهه ، ولم يأخذ منه شيئاً ، وأمره بالرجوع من حيث أتى ، وعوَّق عنده نصارى الشوام الذين كانوا بصحبته (٣) » .

(١) أنظر الجبرتي ، ج ٣ ، ص ٣٨ و ٧٣ ؛ وتقولا الترك ، ذكر تملك فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية ، ص ١٢٩ .

(٢) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

(٣) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٦ ، وأنظر أيضا : قرأى ، المرجع السابق ، ج ١ ق ١ ، ص ٩٠ ؛ وقد ذكر الترك هذه القصة بشيء من التفصيل ونقله هنا بنصه . رغم ما به من أخطاء المقارنة بينه وبين رواية الجبرتي ؛ قال في ص ٥٠ — ٥٢ : « لأن (نابليون) استدعا بأحد الكوميسارية وأرسله إلى دمياط لكي يسير في مركب إلى عكا ... ثم توجه ذلك الكوميسارية المدعو (باغان) من مصر إلى دمياط »

وبعد تحطيم الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية ، والياس من وصول أى مدد جديد من فرنسا أنشأ « نابليون » فرقة عسكرية من مسيحي السوريين والأروام ، وقام بتنظيم هذه الفرقة وتدريبها الجنرال « كليبر » (١) .

ولما أعيد إنشاء الديوان في عهد الجنرال « مينو » عين له مترجمان سوريان : القس رفائيل « ترجمان كبير » والياس نخر (٢) « ترجمان صغير » .

== ومن هناك توجه في مركب أحمد باشا الجزائر الذى كان رابطا فى الميناء وأصبح معه ترجمانا ، واثنين من التجار ، ولما وصل إلى اسكندرية عكا فكتب الكوميسارية (باطان) إلى الجزائر يعلمه عن قدومه من طرف أمير الجيوش (بونا برته) ونزل القبطان إلى عكا ، وحيثما دخل الجزائر فسأله عن مصر وعن أحوالها ، وعن سبب خلاصه من مدينة دمياط ، فأجابه القبطان إن فرنساوية أطلقوا سبيل وحضر معى (كوميسارية) من طرف سر عسكريهم بكتابه ، وهو الآن معى فى المركب ، ثم أعطاه كتاب (الكوميسارية باطان) ، فلما فهم الجزائر ذلك الخطاب اشتد به الغيظ والاضطراب ، وقال للقبطان : (وجه هذا الكافر ، ودعه يسافر وإن لم يرجع فى الحال من هذه الديار أحرقته بالنار ، ثم سأله من الذى أتى معه ، فقال له القبطان ليس معه أحد سوى ترجمانه واثنين من التجار وهم نصارى من أبناء العرب ، فقال الجزائر : (أخرج التجار بأرزاقهم إلى البلد ، ودع الكافر حالا يسافر ، ورجع القبطان إلى المركب ، وأعلم الكوميسارية بما سمع من الجزائر . وفى الحال أحضر له مركبا صغيرا ورجع إلى دمياط من غير تأخير ، وقبض الجزائر على تلك التجار . . . الخ)

(١) انظر الترك ، المرجع السابق ، ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٢) تولى كثيرون من أسرة نخر مناصب الترجمة والفنصلية للدول الأوروبية فى مصر فى القرن التاسع عشر . فمنهم يوسف بازيل نخر Joseph de Basile Fackr الذى كان قنصلا للروسيا فى مدينة دمياط فى عهد محمد على . انظر خبر تعيينه والكثير من تقاريره ورسائله المكتوبة باللغة الإيطالية فى :

==

ولقد لعب الأب أنطون رفائيل زاخور راهبة دوراً هاماً في الترجمة الرسمية في عهد الحملة ، غير أنه لعب دوراً أهم في الترجمة العلمية في عهدى الحملة ومحمد علي ، مما سنتناول الكلام عنه بالتفصيل في مواضعه . وذكر الجبرتي مترجماً سورياً آخر اسمه (نصر الله) ، قال في حوادث ذى القعدة ١٢١٥ (ابريل ١٨٠١) : «توفي محمد أغا مستحفظان مطعوناً (أى بمرض الطاعون) ولم يقلدوا عوضه أحداً ، بل أذتوا لعبد العال أن يركب عوضاً عنه ، وذلك بمعونة نصر الله النصراني ترجمان قائم مقام (بليار^(١))» .

ومن اتصل بالفرنسيين من المترجمين السوريين أيضاً عبود وميخائيل الصباغ ، وهما حفيدا إبراهيم الصباغ طبيب ظاهر العمر ، وقد ولد ميخائيل^(٢) . في عكا ، وتلقى العلم بها ، ثم ارتحل إلى مصر طلباً للعلم أيضاً ، واتصل بالفرنسيين عند قدومهم ، وعاد معهم عند خروجهم حيث اتصل بالمستشرق الكبير (دي ساسي) "De Sacy"

= Cattaui, Rè gne de Mohammed Ali, etc. pp. 2-8, 213, 225, 243, 479, 487, 494, 499, 510.

وقد أدركت حتى سنة ١٩٢٠ تقريباً في مدينتنا دمياط آخر أفراد هذه الأسرة وكان طبيباً مشهوراً . ولا زال منزله بالمدينة يعرف حتى اليوم (بمنز الدكتور نفخر) (١) الجبرتي . ج ٣ . ص ١٥٩ .

(٢) أنظر شيخو ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠ و ١٨ ؛ وسركيس ، معجم المطبوعات العربية ، ١١٩٣ — ١١٩٤ ؛ وميخائيل بريك ، تاريخ الشام ، ص ١٠٤ ؛ وقد ألف ميخائيل الصباغ كتباً كثيرة في «باريس» ترجمها «دي ساسي» ، أهمها : ١ — مسابقة البرق والغبام في سعاة الحمام نشره «دي ساسي» في ١٨٠٥ ؛ مع ترجمته إلى الفرنسية ومنوانه .

La colombe messagère, plus rapide que l'éclair; plus prompt que lanue. Texte arabe et traduc. par De Sacy. =

في « باريس » ، وعين مصححنا للكتيب العربية في المطبعة العربية هناك
سم ناظراً للمخطوطات الشرقية في المكتبة الأهلية .
ونقولاً الترك (١) المؤرخ الثاني للحملة باللغة العربية بعد الجبرتي ،

== ٢ — « المقياس في أحوال المقياس » وهي رسالة في تاريخ مقياس النيل ، طبع حجر
بخط المؤلف ، « باريس » ، شهر « فلوريال » ، سنة ١٣ للمشيخة الفرنسية .
٣ — نشيد قصيدة تهنئ لسعادة القصر المعظم « نابليون » سلطان فرنسا في
مولد بسكره « نابليون الثاني » ، وممها ترجمة فرنسية « لدى ساسي » ،
« باريس » ، ١٨١١ .

٤ — نشيد تهنئ لسعادة السككي الديانة « لويس الثامن عشر » ملك « فرنسا »
ومعه ترجمة فرنسية بقلم « كرانجره دا كرانج : Grangeret dela Grange »
باريس ، ١٨١٤ م .

٥ — الرسالة التامة في كلام العامة ، والمناهج في أحوال الكلام الدارج ، ألفه
سنة ١٨٢١ إجابة لدعوة صديقه اليوس بقطر ، وطلبه الدكتور « هنري تربكي :
» Dr. H rdeoke. في « سترا سبورج » ، غوتنجن ١٨٨٦ .

(١) أنظر : سر كيس ، المرجع السابق ، ٦٣٠ — ٦٣٢ Histoire de La Lettérature
de La Lettérature ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠ و ١٨ و ١٩ و ٣٥ و ٣٦ —
٤٠ و ٥٥ و ٦٠ ؛ El-Turk, Histoire de l'Expédition des Francais
en Egypte. Avertissement par Desgranges; pp.VII-VII

ويبدو لي أن الترك لم ينادر مصر مع رجال الحملة كما ظن البعض ، بل بقي في
دمياط حتى سنة ١٨٠٥ ؛ فقد جاء في : قرأ لي ، السوريون في مصر ، ج ١
ق ١ ، ص ٨٧ ، أن القس أنطون مارون ذكر في مذكراته الخاصة أنه كان
« يرسل إلى رئيسه العام بدير الأديرة ما يفيض عن ثقته من منتوجات القطر المصري
وإيراداته تارة بواسطة الخواجا نقولا الترك . الشاعر الكاتب الشهير (لما سافر
من مصر إلى دمياط وتوجه إلى بر الشام في آب ١٨٠٤ . وكانون الأول ١٨٠٥
وطورا بواسطة يوسف عيروط في دمياط الخ) ؛ وقد ورد في سجل العماد لسنة
١٨٠٥ بكنيسة دمياط الكاثوليكية اسم الطفل ميخائيل الترك قلمه ابن رزقه
نقولا ؛ انظر المرجع السابق . ق ١ ، ص ١٣٣ .

كان والده من القسطنطينية ، وارتحل إلى دير القمر حيث ولد له .
نقولا الذي نبغ في الأدب شعراً ونثراً ، واتصل بخدمة الأمير بشير
الشهابي ، وله فيه مدائح كثيرة ، ثم سافر إلى مصر ، وقيل إن سيده
أرسله إليها ليدرس عن كسب مدى ما ترمى إليه أطماع الفرنسيين ،
وفي مصر اتصل بالفرنسيين وترجم لهم ، وله كتاب بالعربية عن
تاريخ الحملة في مصر والشام اسمه : « ذكر تملك الفرنسية لاقطار
المصرية والبلاد الشامية » . وقد قام بنشر النص العربي وترجمته
الفرنسية في « باريس » سنة ١٨٣٩ المسيو «ديغرانج» : M. Desgranges ،
وكان من المترجمين السوريين للحملة أيضاً القس جبرائيل الطويل (١)
غادر مصر مع الحملة ، وبقي في فرنسا سنوات إلى أن عين أستاذاً للغة
العربية في مدرسة اللغات الشرقية في « باريس » خلفاً للأب رفايل
زاخور راهبة .

هؤلاء طائفة من المترجمين السوريين الذين شاركوا في الترجمة
الرسمية في عهد الحملة الفرنسية نضيف إليهم اسماً أخيراً هو يعقوب بن
يوسف (عزيز) الترجمان الحلبي الماروني ؛ ذكره الأب بولس قرألى
ضمن وفيات السوريين (٢) في مصر سنة ١٨٠٣ .

ولا يمكن أن تكون هذه القائمة المختصرة ثبناً كاملاً لأسماء المترجمين
السوريين فقد اتصل بالفرنسيين منهم أثناء مقامهم في مصر عدد كبير
وعند جلاء الفرنسيين عن مصر خرج معهم « جماعة كثيرة من القبط

(١) الباشا المارجم السابق . ص ٣٩ .

(٢) السوريون في مصر ج ١ ، ص ١ ، ١٢٧ . تقلاعن سجلات الآباء الفرنسيين سكان

للمهاد والزواج والوفاة .

و يحاز الافرنج والمترجمين ، وبعض مسلمين من تتداخل معهم ، وخاف على نفسه بالتخلف ، وكثير من نصارى الشوام والاروام . . . (١) .
ويذكر الالب قرألى أنه كان من بين هؤلاء المهاجرين « نحو خمسمائة سوري من طائفة الممسين الكاثوليكين ومعهم كاهنهم الخورى جبرائيل طويل ، فاستوطنوا مارسيليا (٢) .

٤ — المترجمون المصريون :

قد يلجأ الباحث المفكر بعد ذكر هذه الطوائف إلى البحث والتنقيب عله يجد من بين المصريين من قام بالترجمة للفرنسيين ، ولكنه يجد أن حالة المصريين التعليمية فى ختام القرن الثامن عشر لم تكن تؤهل واحداً منهم للقيام بهذه المهمة ، كان المصريون أغلبية من المسلمين ، وأقلية من الأقباط ، ولم تكن مدارس الطائفتين ومعاهدهما العلمية تعنى بتدريس اللغة الفرنسية ، أو أى لغة أخرى غربية ، كذلك باعد الخلاف الدينى بين المسلمين من المصريين وبين الفرنسيين ، فلم يحاول أحد من عامة مسلمى مصر وطلابهم الاتصال بالفرنسيين فى هذه المدة اليسيرة اتصال تلمذة ليتعلم عنهم اللغة الفرنسية ، كذلك لم يكن علماء المسلمين الذين اتصلوا بالفرنسيين وأعجبوا بهم فى السن التى تسمح لهم ببده تلمذ لغة جديدة .

أما العنصر الثانى من عناصر الشعب المصرى ، وهم الأقباط فقد اتصلوا بالفرنسيين اتصالاً وثيقاً ، وخاصة زعيمهم المعلم يعقوب الذى

(١) الجبرتى . ج ٣ ، ص ١٩٧ .

(٢) المرجع السابق . ج ١ ، ق ١ ص ٩٣ .

جعلته الفرنسيون « سارى عسكر القبط » ، فجمع « شبان القبط وحلق لحاهم ، وزياهم بزى مشابه لعسكر فرنساوية يميزين عنهم بقميص يلبسونه على رؤوسهم مشابه لشكل البرنيطة ، وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم فى غاية البشاعة على ما يضاف إليها من قبح صورهم ، وسواد أجسامهم ، وزفارة أبدانهم ، وصيرهم عسكره وعزوته ، وجمعهم من أقصى الصعيد ، وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التى هو ساكن فيها خلف الجامع الأحمر ، وبنى له قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بساتين عظام ، وكذلك بنى أبراجا فى ظاهر الحارة جهة بركة الازبكية ، وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقتنا المدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذى رمه الفرنسيون ، ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين الوقوف ليلا ونهاراً ، وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنسيون (١) .

وعند خروج الفرنسيين رحل معهم يعقوب وفى صحبته عدد كبير من جنود هذه الفرقة القبطية ، أما يعقوب فقد أدركته المنية وهو فى السفينة فى عرض البحر ، أما أصحابه فقد عاد نفر منهم لوطنهم بعد قليل ، وظل منهم فى أوروبا آخرون قامت بينهم القضايا والدعاوى ، ووقع أكثرهم فى الفقر والفاقة ، فأجرت عليهم الحكومة الفرنسية معاشاً مدة طويلة ، وانتهى أمرهم بالاندماج فى الفرنسيين ، ولم يكن من أثر ثابت لأحد منهم إلا لاليوس بقطر صاحب القاموس الفرنسى العربى ... (٢)

(١) الجبوتى . ج ٣ . ١٧١ .

(٢) شفيق غبريال : المرجع السابق . ص ٣٨ — ٣٩ .

ويبدو أن الفرنسيين اضطنحوا أول بحبيهم إلى مصر طائفة من شبان الأقباط الذين تسمع لهم منهم بتعلم اللغة الفرنسية ، ولم ينبغ من هؤلاء إلا اليوس بقطر ، فقد كانت سنة عند مجيء الفرنسيين ١٥ سنة فاتصل بهم وتلمذ عليهم ، وتعلم اللغة الفرنسية ، واشتغل بالترجمة لرجال الحملة ، ثم ارتحل معهم ، وأقام مع الجالية المرتحلة من مصر في « مارسيليا » حتى سنة ١٨١٢ ، ودأب في تلك المدة على تعلم اللغة الفرنسية حتى أتقنها ، وفي تلك السنة استدعى إلى باريس حيث عهد إليه بترجمة بعض الوثائق العربية الخاصة بالحملة إلى اللغة الفرنسية ، وشارك العلماء الفرنسيين في تحقيق الأسماء العربية الواردة في المصورات الجغرافية التي كانت تعمد حينذاك لتنشر في كتاب « وصف مصر Description de l'Egypte » ، وعمل في ذلك الحين على وضع قاموس فرنسي عربي ، وفي سنة ١٨٢١ — وهو في السابعة والثلاثين من عمره — عين مدرسا للغة العربية العامة بمدرسة اللغات الشرقية في « باريس » ، ولكن المنية عاجلته في تلك السنة بعد أن انتهى من وضع قاموسه ، فأشرف على طبعه في « باريس » خلفه في تدريس اللغة العربية المستشرق الكبير « كوسان دي برسيغال : Caussin de Perceval » في جزئين (١) سنة ١٨٢٩ .

(١) طبع هذا القاموس طبعة ثانية في باريس ١٨٤٨ ثم أشرف على طبعه طبعة رابعة في ١٨٦٩ — في مجلد واحد — كوسان دي برسيغال الابن . وأخيرا صحبه عبيد غلاب أحد خريجي مدرسة الألسن . وأضاف إليه ملاحقا في ١٧٤ صفحة . وأشرف على طبعه في ٣ أجزاء في مطبعة بولاق سنة ١٨٧١ . ولأليوس بقطر مؤلف آخر عنوانه : « مختصر في الصرف » وضعه لتعليم تلاميذ مدرسة —

وبعد ، فهذه هي الطوائف التي قامت بالترجمة الرسمية في عهد الحملة ، ولم تكن إحداها على علم متين باللغة العربية ، ولهذا جاءت النصوص المترجمة ضعيفة ركيكة الأسلوب ، أقرب إلى اللغة العامية منها إلى اللغة العربية ، وإن نظرة واحدة إلى النصوص الفرنسية لوثائق الحملة ، ومنشوراتها الواردة في مراسلات نابليون وكتب الحملة ، وإلى النصوص العربية لترجمة هذه الوثائق والفرمانات مما حفظه الجبرتي ونقولا الترك في كتابيهما لتؤيد هذا الرأي ، بل لقد أبدى الجبرتي نفسه رأيه في ضعف الترجمة في أكثر من موضع ، فقد ذكر عند كلامه عن إنشاء الديوان في عهد « نابليون » أن الفرنسيين وضعوا لهذا الديوان قواعد وشروطا كتبوها بتعابيرات سخيفة يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية . . » (١) ، ولما ذكر نص بحكمة سليمان الحلبي قاتل « كليبر » قال في مقدمتها : « وقد كنت أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تركيبها ، لقصورهم في اللغة ، ثم رأيت كثيراً من الناس تتشوق نفسه إلى الاطلاع عليها .. الخ » (٢)

== اللغات الشرقية بمحروسة باريس كرسي الملكة النرساوية ، طبع حجر ، باريس ١٨٢١ ، في ٥٨ صفحة ؛ وإجابة لدعوته ألف صديقه ميخائيل الصباغ في سنة ١٨١٢ كتابه : « الرسالة الثامنة في كلام العامة » ، « والنامح في أحوال الكلام الدارج » انظر مقدمة القاموس « لسكوسان دي برسيغال » ؛ وشفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٣٩ ، هامش ١ ؛ وسركيس ، المعجم ، عامودا ٥٧٤ و ٥٧٥ ؛ هذا ويلحظ مما سبق ، ومما ذكر هنا أن وظيفة الأستاذية لغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية تولاه ثلاث من المرتحلين من مصر بعد خروج الحملة : أولهم الأب أنطون رونايل حتى ١٨١٦ ، ثم خلفه الأب جبرائيل طويل ، وهذان سوريان ثم اليوس بطر وهو قبلي مصري .

(١) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ٢٠ (٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٢ .

الفصل الثالث

الترجمة العلمية في عهد الحملة

المجمع العلمي ، لجانته ، أعضاء لجنتي الترجمة والطباعة ، أغراضه ، جهوده
أهم من اشتغل بالترجمة من أعضاء المجمع : «مارسل» ، الأب روفاييل .
ترجمة حياته قبل الحملة وفي عهدها ، جهوده في الترجمة في عهد
« نابليون » وفي المجمع العلمي ، اختياره مترجما أول
للدويان في عهد «مينو» ، ترجمته لرسالة طبية
عن مرض الجدري من تأليف «ديجينيت»
الرسائل التي ترجمت في عهد الحملة
وطبعت في مطبعتها .

أما الترجمة العلمية فقد بدأ بها المستشرقون من علماء الحملة يساعدهم
تفر من المترجمين السوريين ، وإن كانت القلائل السياسية التي انتهت
بإخراج الحملة من مصر لم تمكنهم من الاستمرار في أداء هذا الواجب .
أسس نابليون المجمع العلمي المصري ، أو «مدرسة العلماء في بر
مصر» (١) — كما يسميه مستشرقو الحملة — ، من علماء الحملة المختصين
في دراسة نواحي العلم المختلفة — فكان بينهم المتوفرون لدراسة الرياضنة
والهندسة، والفلك ، والميكانيكا وطبقات الارض ، والمعادن ، والطب
والجغرافيا ، والآثار ، والآداب . والفنون الخ. الخ ، ويهمننا أن نذكر
أنه كان من بينهم المختصون في :

(١) مجمع التخريرات . . الخ ص ٣ .

١ — الترجمة .

٢ — الطباعة العربية والفرنسية .

فكانت لجنة الترجمة تتكون من :

فانتور Venture ، ماجالون Magallon ، لوماكا L,homaca ،

أميىدى چوبير Amedee Jaubert ، دلابورت DeLaporte ،

ريج Ralge ، براسرفيش Bracervich ، وبلتيت Belletéte^(١) .

كما كانت لجنة الطباعة تتكون .

مارسل Marcel (مدير المطبعة) ، بونتيس Puntis ، جالان

Galland ، بودوان Bouduin ، بسون Besson^(٢) .

وكانت مكتبة المجمع عامرة بألاف الكتب ، ومن بينها « كثير

من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم وعندهم كتب مفردة

لأنواع اللغات ، وتصاريدها ، واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل

ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت . . .^(٣) ،

وقد حددت أغراض المجمع فى الأمر الصادر بتكوينه فى ٢٢ أغسطس

سنة ١٧٩٨ : —

١ — تقديم العلوم والمعارف فى مصر .

٢ — دراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية ، والتاريخية

الخاصة بمصر ، ونشر هذه الأبحاث

٣ — إبداء رأيه للحكومة فى المسائل التى تستشير فيها .

(١) Canivet. l'Imprimerie de l'Expédition d'Egypte, etc. p. 3.

(٢) هؤلاء كانوا موظفى المطبعة عدا ١٨ عاملا من جامعى الحروف .

(٣) الجبرقى ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

وجعل للمجمع أقسام أربعة : ١ — للرياضيات ٢ — للطبيعيات
٣ — للاقتصاد السياسى ٤ — والآداب والفنون .

وقرر أن يمنح المجمع «جائزتين كل سنتين : الأولى لأهم بحث خاص
بتقدم الحضارة فى مصر ، والثانية لأهم بحث خاص بتقدم الصناعة . . .
وتطبع الأبحاث التى أجزت فى مجموعة المجلس ، وكذلك الأبحاث التى
لم تمل الجائزة متى رأت اللجنة أنها جديرة بالنشر . . .» (١)

وانتشر علماء الفرنسيين فى كل طرف من أطراف مصر يبحثون
وينقبون ، وجمعوا بحوثا طريفة جليلة ستكون المادة التى يكتب منها
فيما بعد كتاب وصف مصر "Description de l'Egypte" والكتب
الكثيرة الأخرى التى ظهرت عن تاريخ الحملة من النواحي العسكرية ،
والطبية والعلمية . . . إلخ

ويتضح من القائمة السابقة التى تضم أعضاء لجنى الترجمة والطباعة
أن كثيرين من هؤلاء الأعضاء قد شازكوا فى نوعى الترجمة الرسمية
والعلمية ، غير أنه يبدو أن عبء الترجمة العلمية فى جملته كان يحمله
ويقوم به عضوان من أعضاء المجمع ، أحدهما مستشرق فرنسى كبير
هو «جان يوسف مارسيل» والثانى سورى منسىحى ، هو «الاب أنطون
رفايل زاخور راهبة المخلصى» ، وهو العضو الشرقى الوحيد بالمجمع
نابليون .

أما «جان يوسف مارسيل» (١٧٧٦ — ١٨٥٤) فكان رأس
المستشرقين من رجال الحملة ، وأكثرهم نشاطا ، كان جده «جيوم
مارسل» أحد قناصل فرنسا القدامى فى الشرق ، ولد فى باريس فى ٢٤

(١) الرابع ، تاريخ الحركة القومية ج ١ ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

توفي سنة ١٧٧٦ ، وفقد أباه وهو صغير فكفله أمه وأشرفت على تربيته وتعليمه فألحقته بجامعة « باريس » حيث عني بدراسة الرياضيات والعلوم ، وفي السابعة عشرة من عمره التحق موظفاً بمعمل البارود ، ثم اشتغل فترة ما بالإشراف على طبع مجلة مدارس المعلمين ، ثم اشترك مع سوارد « Suard » ولاكرتل « lacretelle » في تحرير « Journal des Nouvelles Publiques » ، وفي حوادث الثورة ألغيت هذه الصحيفة وفر محرروها خوفاً من إلقاء القبض عليهم ، ولكن مارسيل عاد من مخبئه بعد قليل وبدأ في سنة ١٧٩٠ يتفرغ — شأنه شأن أسلافه — لدراسة اللغات الشرقية ، وقد تتلمذ في مدرسة اللغات الشرقية على الأساتذة المستشرقين : « Langlès » و « De Sacy » و « Venture » . ومن المحتمل أنه رشح ليكون عضواً من أعضاء اللجنة العلمية للحملة بناء على توصية (١) أستاذه « فانتور » .

وقد عين « مارسيل » — لمعرفته باللغة العربية — مديراً لمطبعة الحملة العربية ، وذلك في نفس الوقت الذي اختار فيه « دينيه » و « مونج » ، وهما في « إيطاليا » ، دون اليأس فتح الله ليكون مديراً لنفس المطبعة ، فلم هذا منعه نبل أخلاقه أن يجمع بين أن يكون مديراً للمطبعة وعضواً في لجنة العلوم والآداب ، بل اكتفى بعضوية اللجنة وتنازل عن مرتب إدارة المطبعة لمعاونيه .

وقد أشرفت وهو في مصر على إخراج الصحيفتين الفرنسيتين « Le Courier d'Egypte » و « La Decade Egyptienne » ، ثم

عين بعد عودته إلى فرنسا مديراً للطبعة الأهلية التي سميت بعد قليل
بالمطبعة الإمبراطورية «l'imprimerie impériale» ، وله أبحاث جليلة
كثيرة — وخاصة عن مقياس الروضة — نشرت في كتاب وصف
مصر (١) .

أما العضو الشرقي فهو الأب « أنطون رفايل (٢) زاخور راهبة »
كانت أسرته من طائفة الروم الكاثوليك الملبانيين ، وقد رحلت عن
حلب إلى مصر في أوائل القرن الثامن عشر ، وفي القاهرة ولد رفايل
في ٧ مارس سنة ١٧٥٩ ، وفيها أيضاً نشأ نشأة دينية فتلقى العلوم الدينية
ودرس اللغة العربية على آباء طائفته ، وخاصة على رئيس مذهبهم

(١) أنظر : يوسف جيرا ، تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا ، ص ٢٧ — ٢٨ ؛
والرافعي ، المرجع السابق ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٢) اختلف في ذكر اسم « روفائيل » في كتبه المخطوطة والمطبوعة ، وفي
الكتب التي كتبت عنه ، وفيما يلي بعض أسمائه : روفائيل Raphael ، والأب
روفائيل Père Raphael ، ودون روفائيل Don Raphael ، ودوم روفائيل
Dom. Raphael ، ودكتور روفائيل Dr. Raphael ، ومستر رفايل Mr Raph
ودون رفايل راهبة Don Raph Monachis والقس رفايل أنطون زاخور
الراهب .. الخ ، وذكر هو عن نفسه في مخطوطة له يملكها صديقنا الأستاذ بشاتلي
بعض مقالاته ومؤلفاته — أنه « القس رافائيل زخور راهب المولد بمصر القاهرة
والحلي نسباً ، وابن البيعة بالحسرو الكاثوليكي مذهباً ، ومن جماعة الخالص لبلاد
سوريا من جهات فينيقيا راهباً فاسيليانياً ، وعلى طائفة الرومية بأمر صاحب الأبروشية
سابقاً خورياً ، وأما الآن بهذا الأوان بفضل الدائم المنان في « باريس » معلم اللغة
العربية بالمدرسة المتعلقة بالمكتبة الشهيرة السلطانية » أنظر : Bachatly, Un Man-
uscrit autographe de Don Raphael, etc. pp-27-35 و« مركب » ، معجم
المطبوعات العربية ، ٨٩٥ — ٨٩٦ .

البازيلي في القاهرة الأب دأغايوس مطر، وعند ما بلغ الخامسة عشرة من عمره سافر إلى إيطاليا مع أستاذه هذا ليتم علومه الدينية^(١) في روما، واستغرقت رحلته مائة يوم فوصل إلى مدينة البابوات في أواخر يناير سنة ١٧٧٥ ، وهناك التحق بمدرسه د سانت اتاناز الاكليريكية : Séminaire de Saint-Athanase حيث بقي بها ٥ سنوات أتم في خلالها دراساته الدينية ، ثم مكث سنتين أخريين في إحدى الجامعات لدراسة اللغات، وخاصة اللغة الإيطالية .

وفي سنة ١٧٨١ ، عند ما أتم رقايل الثانية والعشرين من عمره غادر روما وعاد إلى صيدا مركز الطائفة البازيلية فالتحق بدير المخلص Couvent de Saint Sauveur ، وهناك اشتغل بترجمة بعض الكتب الدينية^(٢) والوثائق المحفوظة في مكتبة هذا الدير ، وظل يرتقى في المناصب الدينية ، فعين شماساً في سنة ١٧٨٢ ، ثم قسيساً في سنة ١٧٨٥ ، ثم ارتحل بعد ذلك إلى روما في سفارة دينية قام في أثناءها بترجمة كثير من وثائق هذه السفارة عن العربية إلى الإيطالية وعن الإيطالية إلى العربية .

(١) أنظر عن حياته الدينية : قسطنطين الباشا ، ترجمة الأب روفائيل زخور المجلة البطريركية ، السنتين السابعة والثامنة (١٩٣٢) ، ص ٤٨٦ — ٤٨٨ ، ٥٦١ — ٥٦٤ ، ونفس الكاتب ، وصف قنطار قداس يوناني قديم ، المسرة ، السنة ١٩ ، ج ٣ سنة ١٩٣٣ ، ص ١٥٩ — ١٦١ ؛

Bachatly. Un Membre Oriental, p.p. 237-241

(٢) عن قائمة كتبه ومؤلفاته الدينية أنظر : شيخو ، كتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية ، ص ١٠٩ — ١١٠ ؛ والباشا ، المجلة البطريركية ، السنة والصفحات المذكورة في الهامش السابق .

وبانتهاء هذه السفارة عاد رفايل إلى مصر واستقر بها حتى وصلت الحملة الفرنسية ، فكانت أعمالها ميدانا طيبا لإشباع طموحه وتحقيق آماله العريضة .

في ٣ دفركتيدور ، من السنة السادسة (٢٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ = ٨ ربيع الأول سنة ١٢١٣) صدرت اللائحة بتكوين المجمع المصري ، وكانت المادة ٢٠ من هذه اللائحة تقول بأنه « سيكون هناك مترجم عربي يتقاضى مرتبا خاصا ، ومن الممكن أن يكون عضوا بالمجمع

“Ily aura un interprete arabe qui aura un traitement particulier et qui pourra être membre de l'Inst. itut.^(١)”

واختير « أنطون رفايل زاخور راهبة »^(٢) ليكون هذا المترجم

وعين عضوا في لجنة الآداب والفنون الجميلة بالمجمع ، ولم تذكر المراجع

الأسباب التي مهدت لرفايل سبيل الاتصال بنابليون ورجال الحملة ،

وابختياره دون غيره ليكون عضوا بالمجمع ؛ وإن كان الأستاذ يشأتلى^(٣)

يقدم فرضين قد يكون أحدهما أو كلاهما سببا لهذه الصلة .

(أولهما) أن نابليون كان قد أرسل إلى العالم « مونج ، والجنرال

1) Correspondance de Napoléon Ier., t. IV, P. 385.

(٢) اسم هذا الأب رفايل أو روفائيل واسم أبيه أنطون زخور (زخريا)
الراهبة (لا الراهب) ويعمل هذا اللقب الحورى قسطنطين الباشا في مقاله عنه بما
يأتى : « بيت الراهبة أسرة قديمة مشهورة بأفراد كثيرين ذوى وجاهة وفضل
نبغوا منها في حلب وبيروت ودمشق ومصر القاهرة والأسكندرية ، وبعود نسب
هذه الأسرة فيما يظهر إلى امرأة بعد أن تزلت بموت رجلها لبثت تلبس ثوب
الحداد الأسود وكانت بمحشمتها وحسن سلوكها كأنها راهبة ولذلك غاب على أولادها
لقب « بى الراهبة » .

3) Bachatly. Op. Cit. pp. 242-243.

« ديزيه » ، وهما في إيطاليا يوصيهما بالاستيلاء على مطبعة (البروجندرا) ، وأن يتفقا مع عدد من المترجمين الموجودين في إيطاليا فكان من بين هؤلاء المترجمين سوريان من طائفة الروم الكاثوليك ، هما : دون الياس فتح الله ، ويوسف مسابكي (١) ومن المحتمل أنهما كانا على معرفة وثيقة برفايل مذ كان يتلقى العلم في روما . فقاما عند وصولهما إلى مصر بلفت أنظار أولى الأمر من الفرنسيين إليه .

(وثنائهما) انه كان من بين أعضاء الديوان الذى أنشأه بوناپرت . عضوان من السوريين هما : يوسف فرحات ، وميخائيل كحيل (٢) ، ومن المرجح أيضا أنهما كانا على اتصال بالآب رفايل الذى كان يقوم بشئون طائفتهم الدينية ، فاعلما مهذا له السبيل للاتصال برجال الحملة الفرنسية .

ومهما كانت الأسباب فقد اختير رفايل عضواً بالمجمع ، وبدأ به جهوده العلمية ، فقد ذكر في صحيفة *La Decade Egyptienne* أن المواطن « بوناپرت » دعا المجمع لوضع تقويم للسنة الثامنة ، على أن يكون هذا التقويم ثلاثيا يشمل على التاريخ الفرنسى والقبلى والعربى ، وكلف الأعضاء : *Nouet, Monge, Bauchamps. & Raphaél* بوضع هذا التقويم ، وقامت اللجنة بمهمتها ، ووضع التقويم ، وطبع بالمطبعة العربية تحت عنوان : « تقويم الجمهورية الفرنسية حسب تبعات توقيت القاهرة ، والسنة الثامنة للجمهورية الفرنسية ، وذلك بالقاهرة بالمطبعة

1) *Correspond. de Napoleon Ier. t. V, p. 65; Canivet 'op.; Cit pp. 3-5.*

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

الأهلية ، السنة الثامنة للجمهورية « *Annuaire de la République Française*, calculé pour le meridien du caire. l'an VIII de l'ère française^(١)

وإنه يستطيع أن يقرر دون أن نكون مخطئين أن دون رفايل كان الواضع الوحيد أو الرئيسى للجزء الخاص بالعصرين الهجرى والقبلى (٢) ، ولا شك أن رفايل قد قام بنصيب كبير من أعمال الجمع عند إعداد كثير من الأبحاث وترجمة كثير من الوثائق التى كان يجمعها علماء الجمع ليصنفوا منها كتاب وصف مصر ، وليضعوا على ضوئها التنظيم الجديدة السريعة لإدارة البلاد ، وحكم الشعب الجديد ، كذلك يبدو أن رجال الحكومة الفرنسية قد عهدوا إلى رفايل بترجمة كثير من المراسيم والفرمانات والقوانين الصادرة منهم إلى الشعب المصرى ، ويقول الأستاذ بشاتلى إن كثيراً من هذه الوثائق التى تكون Fonds Marcel المحفوظة فى الجمع المصرى الجديد لا تحمل أى توقيع ، ولكن أى مقارنة بسيطة بين بعض نصوص هذه الوثائق وبين ما ورد فى مخطوطة رفايل التى فى حوزته تدل يقيناً على أن هذه الوثائق هى من وضع أو ترجمة رفايل .

وأول هذه الوثائق الترجمة العربية لمرسوم خاص بحمرك السويس صدر فى نوفمبر سنة ١٧٩٨ (نيفوز عام Nivöse an VII. ٧ جماد ثانى ورجب سنة ١٢١٣) وثانيهما ترجمة أمر بتأجير بعض أملاك الجمهورية

(1) Geiss, Histoire de l'Imprimerie en Egypte. Bull. Inst. d'Egypte, 1907-1908. pp, 147 149,

(٢) Bachatly. Op. Cit.. p. 244 ، وفى مقالة الأستاذ بشاتلى هذه دراسة

قيمة جدا لحياة وجهود رفايل . وعننا أخذنا معظم هذه المعلومات .

تواريخها. ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨ (١٠ نيفوز عام ٧ = ٢٢ رجب
سنة ١٢١٣ هـ) (١).

وفي اليوم السابق لمسير بونا بورت بحملته إلى سوريا (٥ فبراير
سنة ١٧٩٩) (١٧ بلوفيز سنة ٨ Pluviose an VIII = ٣٠ شعبان
١٢١٣) عزل نابليون « جلوتيه Gloutier » عن وظائفه التي كان يتولاها
من قبل اللجنة الفرنسية في الديوان الجديد ، وعهد بهذه الوظائف إلى
« فورييه Fourier » السكرتير الدائم للمجمع . وكان فورييه يعرف رفايل
زميله في المجمع معرفة وثيقة فاستمر في التعاون معه . ولكن لا في
الميدان العلمي ، بل في ميدان الشؤون الإدارية ؛ وفي اللحظة التي وصلت
فيها القوات الفرنسية إلى العريش وصل من « برتديه » إلى « الجنرال
دوجا » منشور باللغة الفرنسية موجه إلى أعضاء ديوان القاهرة ، وقد
قام رفايل بترجمة هذا المنشور إلى اللغة العربية (٢) .

وبعد سفر نابليون إلى فرنسا انتقلت قيادة الحملة إلى كليبر ، وفي
٢٥ نوفمبر سنة ١٧٩٩ (٢٧ جماد ثان ١٢٠٤) أصدر القائد الجديد
أمراً بتكوين لجنة لجمع المعلومات عن مصر (٣) : « Commission des
renseignements sur l'Egypte. »

1) Bachatly, Op. Cit, p. 245; Fonds Marcel (Bibliothèque de
l'Institut d'Egypte). No. 12,14.

2) Bachatly, Op. Cit, p. 246 & Fonds Marcel, No. 23.

(٣) أنظر صورة هذا الأمر في خطاب وجهه « كليبر » إلى رئيس هذه اللجنة في:

Le Comte Pajal. "Kléber. Sa vie, sa correspondance, Paris.
1877. p. 392; & Rigault. Op. Cit. pp. 125-126.

وقد ذكر رفاييل في مخطوطته التي يملكها الأستاذ بشاتلي أن هذه اللجنة كانت تتكون منه ومن سبعة أعضاء آخرين . وفي هذه المخطوطة أيضا صورة لخطاب (١) أرسله رفاييل للشيخ السادات يشكره فيه على حسن استقباله لتابعه ، ويطلب منه - كعضو في اللجنة - أن يزوده بالمعلومات الوافية عن أسرته .

ولمبان قيام رفاييل بهذا العمل قتل كبير في ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ (٢١ المحرم سنة ١٢١٥) فانتقلت مقاليد الأمور إلى الجنرال « مينو » وأصدر « مينو » أمره فأعيد تكوين الديوان في صورة جديدة من من تسعة من المشايخ المسلمين ، يشترك معهم « فورييه » بلقب قوميسير « كشاري » أو « مدبر سياسة الأحكام الشرعية ، كما يسميه الجبرتي » وطفر رفاييل طفرة جديدة فعين « ترجان كبير » للديوان الجديد ، وتمكنت الصداقة في هذا العهد بين رفاييل والقوميسير « فورييه » فكانا يسكنان معا في بيت رشوان بك بعبدين حيث كانت تعقد جلسات الديوان .

وفي « ضحوة يومين في الجمعة » (٢) أي حوالي الساعة التاسعة صباحا كان يدخل « فورييه » إلى قاعة الاجتماع يتقدمه رفاييل « ترجان كبير » كاتب مضبطة الجلسة أو « كاتب سلسلة التواريخ » السيد إسماعيل الخشاب حيث ينضمون إلى بقية الأعضاء ، وقد أعدوا في بيت رشوان بك

1) Bachatly. Op. Cit. p. 247. et Un Manuscrit inédit de Don Raphael. p. 30.

(٢) الجبرتي ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ ، وان كان Bachatly. Op. Cit. p. 248 يذكر أن جلسات الديوان كانت تعقد كل يوم ؛ انظر أيضا الجبرتي ، ج ٣ ،

« للمتترجمين والكتبة من الفرنساوية مكانا خاصا يجلسون به في غير وقت الديوان على الدوام، لترجمة أوراق الوقائع وغيرها ، وجعلوا لها خزائن للسجلات . . . » (١) .

وقد أشار الأستاذ بشتلى في بحثه القيم عن رفايل إلى أنه عثر في محفوظات المجمع المصرى الجديد على وثيقتين هامتين من ترجمة « رفايل » أثناء قيامه بوظيفة المترجم الأول للديوان ، أولى هاتين الوثيقتين ترجمة عربية بخط « دون رفايل » للائحة قضائية أصدرها « الجنرال مينو » لتنظيم المحاكم المصرية ، وتاريخها أول أكتوبر سنة ١٨٠٠ (— 10 Vendemiaire an ix فندمير السنة التاسعة —) . (جمادى أول سنة ١٢١٥) ، وفي أسفلها هذه التوقيعات (١) :

مدير سياسة الأحكام الشرعية

فورييه

كاتب سلسلة التواريخ

الشيخ إسماعيل الخشاب

ترجمان كبير الديوان

دون رفايل

والوثيقة الثانية ترجمة أمر يومى صادر عن « الجنرال مينو » ، فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٠١ (٥ فركتيدور = ١٢ ربيع الثانى سنة ١٢١٦) .

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٤٥ .

2) Fonds Marcel. No. 64, 90^e & Bachatly. Op.Cit. p. 249.

خاص بطريقة إختيار مشايخ البلاد وحقوقهم ، وهي مكتوبة أيضا بخط دون رفايل (١) نفسه .

وظل رفايل على نشاطه المعهود يقوم بترجمة الرسائل والمراسيم والفرمانات ويقرأها بنفسه على أعضاء الديوان ؛ ففي جلسة ٣٥ شعبان سنة ١٢١٥ أرسل صاري عسكر « مينو » إلى مشايخ الديوان كتابا وقرأه الترجمان الكبير رفايل (٢) ، وفي هذا الكتاب وجه « مينو » الشكر للمشايخ على تهنئتهم له بالمولود الجديد الذي رزقه من زوجته المسلمة « زبيدة » .

وفي المحرم سنة ١٢١٦ (مايو — يونيو سنة ١٨٠١) — وهي السنة التي حضر فيها الإنجليز والأتراك لإخراج الفرنسيين — حضر الوكيل والترجمان وطلبهم (أى مشايخ الديوان) للحضور إلى قائمقام فلما حصلوا عنده قال لهم على لسان الترجمان ، نخبركم أن الخصم قد قرب منا ، ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنسيات (٣) .
وفي نفس الشهر « اجتمع المشايخ والوكيل بالديوان على العادة ، وحضر « إستوف » الخازن دار ، وترجم عنه رفايل بقوله ، « إنه يشي على كل من القاضى والشيخ إسماعيل الزرقاني باعتنائهما فيما يتعلق بأمر الموارديث وبيت المال » (٤)

وفي صفر من نفس السنة — ١٢١٦ — أبرمت شروط الصلح بين الفرنسيين وأعدائهم ، فعقد الديوان وحضر المشايخ والوكيل ، فقال

(١) أنظر الهامش ٢ بالصفحة السابقة .

(٢) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٤٩ .

(٣) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

(٤) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٩ .

الوكيل : هل بلغكم بقية الشروط ؟ ... فقالوا لا ، فأبرز ورقة من كفه بالقلم الفرنسي فشرح يقرأها ، والترجمان يفسرها ...» (١) .
وفي أواخر هذا الشهر — ٢٤ صفر سنة ١٢١٦ — عقدت الجلسة الأخيرة للديوان وألقيت فيها الخطب ، وكان من بينها خطبة للوكيل ألقاها بنفسه « حتى فرغ منها ، ثم قرأ ترجمتها بالعربي الترجمان رفايل ، ومضمونها حصول الصلح وتمويهات وهلسيات ليس في ذكرها فائدة...» (٢)
وقد حاول رفايل قرض الشعر إلى جانب عمله في الترجمة الرسمية والعلمية ، فمهد وصل إلى مصر في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٠ خبر موت الجنرال « ديزيه » — توفي في ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ — وكان المعلم يعقوب قد اشترك مع « ديزيه » في إحدى معاركه في الصعيد ضد جماعة من المماليك ، وأبلى في هذه المعركة بلاء حسناً مما دفع « ديزيه » إلى تقليده سيفاً تقديراً لشجاعته .

تألم يعقوب لهذا الخبر ألماً شديداً ، وأرسل إلى الجنرال « مينو » يعرض عليه رغبته في دفع ثلث نفقة الأثر المزمع إقامته لتخليد ذكرى « ديزيه » ، كذلك فكر يعقوب في إرسال تعزية شعرية للحكومة الفرنسية ، فتقدم بالرجاء إلى صديقه « رفايل » أن ينظم له هذه القصيدة ، فنظمها من أربعين بيتاً في ثلاثة أيام ، وصورة هذه القصيدة موجودة في مخطوطة « رفايل » التي يملكها الأستاذ بشتلي الذي يرى أن المقارنة البسيطة بين الأصل العربي والترجمة الفرنسية القصيدة

(١) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٩٣ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٩٥ .

لا تدع أى شك فى أنها من نظم (١) رفايل، وإن كانت الترجمة الفرنسية تحمل اسم يعقوب .

كذلك لم تشغل الترجمة الرسمية فى العهد الأخير رفايل تماما عن الترجمة العالية ، فقد قام فى شعبان سنة ١٢١٤ (يناير سنة ١٨٠٠) . بترجمة رسالة طبية صغيرة ألفها « ديجينيت » كبير أطباء الحملة عن مرض الجدري وطرق علاجه ، وقد طبعت هذه الرسالة مرتين فى مطبعة الحملة ، وكان عنوان الطبعة الأولى :

« هذا تنبيه فيما يخص داء الجدري المتسلط الآن ، وذلك بشرح موجه إلى أرباب الديوان بمصر القاهرة من قبل البلدى دجنط رئيس الأطباء فى الجيش الفرنساوى بجهة الشرق — بمصر القاهرة بدار المطبعة الجمهور الفرنساوية (كذا) ، فى يوم ٢٠ من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية » (٢) .

1) Bachally. Un Manuscrit, et . p.31; Un Membre Oriental, etc. p. 251; Homsy, Le Général Jacob et L'expédition de Bonaparte en Egypte. p. 115.

والأستاذ شفيق غربال بك ، الجنرال يعقوب الخ ص ٢٦ .

(٢) كان عنوان الرسالة بالفرنسية كما يلى :

« Avis sur la petite vérole regnante, adressé au Divan du Kaire, par le Cen. Desgenettes, Premier médecin de l'Armée d'Orient. Au Kaire, de l'imprimerie Nationale, le 27 nivôse an VIII. »

وقد طبعت الرسالة طبعة ثانية فى ٩ شعبان سنة ١٢١٥ (٢٦ ديسمبر سنة ١٨٠٠) تحت عنوان : « هذا تنبيه فيما يخص داء الجدري المتسلط الآن ، وذلك بشرح موجه إلى أرباب الديوان بمصر القاهرة من قبل « السيتون دجنط » رئيس الأطباء فى الجيش الفرنساوى بجهة الشرق ، فى ٢٠ من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية بمصر القاهرة — طبع ثانيا بدار مطبعة الجمهور الفرنساوى فى ٩ —

وقد ذكر « ديجينيت » أنه أهدى ٢٥٠ نسخة من رسالته إلى الديوان ، و ٥٠ نسخة أخرى للست نفيسة المرادية ، وأيد هذه الرواية الجبرتي . فقال في حوادث شعبان سنة ١٢١٥ : « وفيه أرسل رئيس الأطباء الفرنسيين نسخا من رسالة ألفها في علاج الجدري لأرباب الديوان ، لكل واحد منهم نسخة على سبيل المحبة والهدية ليتناقلها الناس ، ويستعملوا ما أشار إليه فيها من العلاجات لهذا الداء العضال ، فقبلوا ذلك منه ، وأرسلوا له جوابا شكرا له على ذلك ... » ولا شك أن الجبرتي نال نسخة منها — فقد كان عضواً في الديوان — وأنه قرأها . فقد قال معقبا على هذا الحادث : « وهي رسالة لا بأس بها في بابها » (١) .

هذه هي الطوائف التي شاركت في الترجمة الرسمية والعلمية في مصر في عهد الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) ، وإنا لنرجح أنه إذا كان قد قدر للحملة أن يطول عمرها في مصر لنشطت هذه الحركة وأثمرت . وأثبت أكلها ، غير أنها انقطعت بعد خروج الحملة فترة ما ، على أن تبدأ حياة جديدة أكثر نشاطا وأوفر إنتاجا في عهد العاهل العظيم محمد علي ، وسنرى أن الفرنسيين — ومنهم بقية من علماء الحملة —

== من شهر شعبان سنة ١٢١٥ هجرية — قد نقلها وترجمها باللغة العربية القس رافائيل راهب بمصر . أنظر الرسالة نفسها ،

Bachatly. Op. Cit. pp. 250-1; Dunne, Printing and Translations. tec. p. 327.; Geiss. Op. Cit. p. 150.

(١) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٤٩ .

هم الذين سيوجهون الحياة العلمية كلها — لا حركة الترجمة فقط —
في ذلك العهد .

ونرى أخيراً أن خير ما يتوج به الكلام عن الترجمة العلمية في عهد
الحملة أن نرصد فيما يلي ثبنا بالكتب — بل المكتبات — القليلة التي
ترجمت (١) وطبعت في مطبعة الحملة :

١ — وصايا لقمان الحكيم. Fable de Loqman, surnommé. le Sage.
طبعت باللغة العربية ومعها ترجمتها الفرنسية في مطبعة الحملة
في كتاب صغير من ١٢٠ صفحة ، كان ثمنه تسعون نصف فضة .

٢ — نشرة بها محضر محاكمة سليمان الحلبي باللغات الفرنسية والعربية
والتركية ، وكان عنوانها باللغة العربية : « مجمع التحريات المتعلقة إلى
ماجري باعلام ومحكمة سليمان الحلبي قاتل صاري عسكر العام كبير —
بمصر القاهرة — بمطبعة الجمهور الفرنسي — في سنة ٨ من إقامة
الجمهور ، وعنوانها بالفرنسية : "Recueil des pièces relatives à
la procédure et au jugement de Soleyman al-Haleby,
assassin du general en chef Kléber." وتقع هذه الكراسة
في ١٥٠ صفحة .

٣ — أجرومية للغة العامية Grammaire arabe Vulgaire à
l'usage des Français et des Arabes. (Incomplet.) وهي من
وضع « مارسيل » ، وقد بدأ في تصنيفها في قلعة القاهرة ، ثم أضاف

(١) ذكرت هذه الكتب في :

Giess. Hist. de l'imprimerie en Egypte, (Bul. de l'inst. d'Egypte,
1907, pp. 148-150.

إليها زيادات في الاسكندرية ، غير أنها ظلت غير كاملة ، وطُبعت في سنة ١٨٠١ باللغتين الفرنسية والعربية في ١٦٨ صفحة .

٤ — « رسالة في مرض الجدري » ، تأليف «ديجينيت» كبير أطباء
الجملة ، وترجمة الأب رفائيل زاخور . وقد ذكرنا فيما سبق عنوانها
العربي والفرنسي الكامل ، طبعت باللغتين الفرنسية والعربية في ٤٣
صفحة طبعتين : الأولى في شعبان سنة ١٢١٤ (يناير سنة ١٨٠٠) ،
والثانية في شعبان ١٢١٥ (ديسمبر سنة ١٨٠٠) .

الفهرس التفصيلي

الصفحات

المقدمة :

(أ) تزواج الحضارات ؛ وسائل هذا التزاوج وخاصة الترجمة . ٣ — ٦

الاتصال والتزاوج أساس التطور والرقى ، أمثلة ، طرائق التعليم والتلقيح بين الحضارات بعضها والبعض الآخر ؛ الترجمة : عند العرب في العصر العباسي في أوروبا في العصور الوسطى وعصر النهضة .

(ب) عرض عام لحالة مصر والشرق الأدنى قبل الحملة الفرنسية ٧ — ١٦

مصر تدفع عن الشرق خطر التتار ، تأخر الحالة العلمية في مصر ، ناحية واحدة اهتم بها المصريون في تلك العصور وهي التاريخ لأنفسهم ولمصر ، جهود التأليف الموسوعي في القرن التاسع الهجري (١٢٥٠ م) ، الركود والجمود في العصر العثماني ، أسباب هذا الركود كما صورها الأستاذ شفيق غريبال بك ، وصف الرحالة الفرنسيين لحالة مصر العلمية في القرن ١٨ ، وصف الجبرتي لها ، انقطاع الصلات بين مصر والغرب ، الدول الأوروبية تبدأ التفكير في غزو الشرق وخاصة مصر .

الفصل الأول :

اتصال العلماء المصريين بعلماء الحملة الفرنسية وأثر هذا الاتصال ١٧ — ٣٤

التقابل بين جيشي المماليك والفرنسيين ، أعداء الفرنسيين في مصر ، فشل الحملة حريباً ، جهود علماء الحملة موقف الشعب منهم ، موقف علماء مصر منهم ، الشيخ عبد الرحمن الجبرتي نصيف الجمع العلمي ، اختياره عضواً في ديوان « مينو » ، الشيخ اسماعيل الخشاب ، علاقته ببعض مستشرق الحملة ، اختياره كاتباً للسلسلة التاريخ في ديوان « مينو » ، أسطورة إصدار صحيفة عربية في عهد الحملة ودحضها ، الشيخ حسن العطار ، عنايته بعلوم غير تلك التي

كانت تدرس بالأزهر ، اتصاله ببعض الفرنسيين ، إفادته منهم ولهم ، أثر هذا الاتصال في المشايخ الثلاثة ، مطبعة الحملة .

الفصل التالي :

الترجمة الرسمية في عهد الحملة . ٣٥ — ٦٤

حاجة رجال الحملة إلى الترجمة الرسمية ، استعانتهم بأسرى المسلمين في مالطة وخاصة المغاربة ، المترجمون في ديوان (مينو) ، هيئات المترجمين الرسميين في عهد الحملة : أسرى المسلمين في مالطة ؛ المستشرقون من رجال الحملة : (ثانتور) ، (جوبير) ، (براسرقيش) ، (لوماكا) ، (حناروكه) ، (كليمان) ، (بوديف) ؛ المترجمون السوريون ، محبرات (الشوام) إلى مصر منذ بدء القرن ١٨ ، الحملة تصطحب مترجمين سوريين من إيطاليا : دون إلياس فتح الله ، يوسف مسابكي ، أنطون مشجرة ؛ مترجمون سوريون من مصر : يوسف فرحات ، ميخائيل كجيل ، القس رفايل ، إلياس نقر ، نصر الله ، عيود وميخائيل الصباغ ، نفولا الترك ؛ المترجمون المصريون ، صلة الأقباط بالفرنسيين ، الفرنسيون يعلمون بعض الشبان الأقباط اللغة الفرنسية ، اليوناني بقطر ، الرأي في الترجمة الرسمية في عهد الحملة .

الفصل التالي :

الترجمة العلمية في عهد الحملة . ٦٥ — ٨١

المجمع العلمي ، لجانه ، أعضاء لجنة الترجمة والطباعة ، أغراضه ، جهوده ، أهم من اشتغل بالترجمة من أعضاء المجمع : (مارسل) ، الأب رفايل ، ترجمة حياته قبل الحملة وفي عهدها ، جهوده في الترجمة في عهد (نابليون) وفي المجمع العلمي ، اختياره مترجما أول للديوان في عهد (مينو) ترجمته لرسالة طبية عن مرض الجدري من تأليف (ديجبذيت) الرسائل التي ترجمت في عهد الحملة وطبعت في مطبعتها .

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر

ب ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس ٥٩٢٦٢٧٧